١٠

شرح
العقيدة الواسطية

(الشرح الصغير)

تصنيف شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

المتوفى سنة (٧٢٨) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ الدكتور

د. محمد محمدي بن محمد جميل النورستاني

حفظه الله

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

شَرح
العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّة
(الشَّرحُ الصَّغِيرُ)

١٠

شرح العقيدة الواسطية

(الشرح الصغير)

تصنيف شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

المتوفى سنة (٧٢٨) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ الدكتور

د. محمد محمدي بن محمد جميل النورستاني

حفظه الله

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

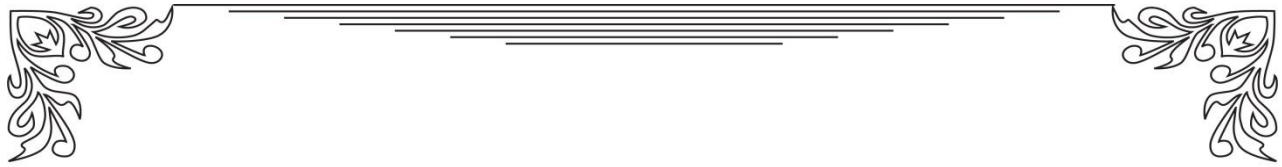

مقدمة المُشرفين على التفريغ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن من نِعم الله تعالى على أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أن جعلَ فيها علماء ربانيين، وأئمة في الدين، ورثوا من علم النبوة على قدر ما قسم الله لهم من ذلك الميراث العظيم الذي لا يعادله شيء من متاع الدنيا الفاني.

ومن رحمة الله بعباده: أنه كلما اشتدت حاجتهم إلى أمر من الأمور كلما يسر الله سبل تحصيله، ونوع لهم الطرائق الموصلة إلى نيله وبلوغه، ولما كان العلم أعظم ما يحتاجه العباد وليس لهم عنه غنى طرفة عين، ولا سيما علم العقيدة والتوحيد الذي هو أشرف العلوم وأزكاها، وأجلها قدرا وأسناها،

والذي قد زادت الحاجة إليه في هذه الأزمنة المتأخرة، بسبب انتشار الأهواء والبدع، وكثرة المخالفين للتوحيد والمعتقد، والمجانبين للسنة والأثر.

ولما كان الأمر كذلك رأينا منة الله علينا في هذه الأعصر بوسائل كثيرة لحفظ العلم ونشره لم تكن متيسرة لمن قبلنا، وإن من تلك الوسائل حفظ الدروس في تسجيلات صوتية ومقاطع مرئية، تنقل العلم لفظا ومعنى.

وكان من تمام نعمة الله علينا أن هيأ وسائل حديثة لحفظ هذا العلم، وهو ما يعرف بـ **"التفريغات"** والتي تنقل علم الشيوخ من مسموع إلى مقروء، فتعين الطالب على توفير وقته وجهده، وتدعوه لجمع قلبه وعقله على حفظ العلم وضبطه، وتساعد على انتشاره عبر وسائل التواصل والتقنيات الحديثة مما يهيئ السبيل للانتفاع به، وتداوله بيسر وسهولة من قبل الدارسين والمتعلمين، بل والأساتذة والمدرسين في أحيان كثيرة.

ومن هنا جاءت فكرة المساهمة في تفريغ دروس فضيلة الشيخ الدكتور محمد محمدي بن محمد جميل النورستاني حفظه الله تعالى.

وقد يسر الله تعالى الخطوة الأولى لهذه المرحلة وهي إنشاء قناة للشيخ على الشبكة، وكذا إنشاء حساب لدروسه في اليوتيوب، والتليجرام، كل ذلك حرصًا على الحفاظ على ما تيسر الحصول عليه من مجالس ودروس فضيلة الشيخ حفظه الله تعالى، وكان الذي فات منها وضاع إن لم يفق الموجود كثرة فلا يقل عنه عددا، وعزاؤنا فيه أن الله يعلمه، وأن الملائكة كتبته، ونسأل الله ﷻ أن يتقبل ذلك من الشيخ وأن يجعله في موازين حسناته، ومن تلك الكتب التي لم نقف على تسجيلاتها:

- خلق أفعال العباد للبخاري.
- الرد على الجهمية للدارمي.
- نقض عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد، للدارمي.
- القاعدة المراكشية.

وغيرها كثير [1].

---

(١) ونجد هذا الموضع فرصة لحث الإخوة من طلاب الشيخ ممن قد تبلغهم هذه التفريغات، ممن حضروا للشيخ مجالس في السابق

وجاءت المرحلة الثانية هذه، وهي سلسلة التفريغات الصوتية للدروس العلمية **للشيخ محمد محمدي النورستاني** حفظه الله تعالى، وستكون شاملة لجميع دروسه المسجلة، وهي على الترتيب التالي:

١- الأصول الثلاثة (الشرح الأول ٨ مجالس).

٢- الأصول الثلاثة (الشرح الثاني ١١مجلسا).

٣-الأصول الثلاثة (الشرح الثالث ١٧ مجلسا)

٤- القواعد الأربع (الشرح الأول مجلس واحد).

٥- القواعد الأربع (الشرح الثاني- مجلسان).

٦- القواعد الأربع (الشرح الثالث مجلسان).

٧- نواقض الإسلام.

٨- كشف الشبهات.

٩- كتاب التوحيد. (ولازال مستمرا).

١٠- العقيدة الواسطية (الشرح الصغير).

١١- العقيدة الواسطية (الشرح الكبير).

١٢- لمعة الاعتقاد.

١٣- العقيدة الطحاوية.

١٤- عقيدة الرازيين.

١٥- القصيدة الحائية لابن أبي داود.

١٦- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى.

١٧- الفتوى الحموية.

١٨- الجواب على الاعتراضات المصرية.

وسجلوا شيئا منها أن يتواصلوا معنا، فحفظهم لعلم الشيخ أقل حق للشيخ علينا وعليهم، وهو من بر التلاميذ بمعلميهم والذي لا يقل أهمية عن بر الأبناء بآبائهم متى اقترن بالنية الصالحة.

١٩- العقيدة التدمرية. (الشرح الصغير).

٢٠- العقيدة التدمرية. (الشرح الكبير، ولا زال مستمرا).

٢١- نقض المنطق "الانتصار لأهل الأثر. لابن تيمية.

٢٢- الإبانة الصغرى "الشرح والإبانة على أصول أهل السنة والديانة" لابن بطة.

٢٣- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم. (ولا زال مستمرا).

٢٤- شرح ابن أبي العز الحنفي على الطحاوية. (ولا زال مستمرا)

٢٥- شرح القصيدة النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية" لابن قيم الجوزية. (ولا زال مستمرا).

٢٦- شرح العقيدة الأصفهانية. لابن تيمية. (ولا زال مستمرا).

٢٧- رسالة القضاء والقدر لابن عثيمين.

٢٨- قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات. لابن تيمية.

٢٩- الأفعال الاختيارية من العباد لابن تيمية.

٣٠- فصل في الكلام على الاتحادية. لابن تيمية.

٣١- مسألة في حياة الخضر وادعاء لقائه. لابن تيمية.

٣٢- فصل في معنى الحي القيوم. لابن تيمية.

٣٣- الأخنائية، لابن تيمية. (ولازال مستمرا).

٣٤- محاضرات في العقيدة والتوحيد.

٣٥- مجالس تفسير سورة العنكبوت.

٣٦- مجالس تفسير سورة الأحزاب.

٣٧- مجالس تفسير سورة الزمر.

٣٨- المنظومة البيقونية.

٣٩- نزهة النظر.

٤٠- المداخل إلى كتب السنة. **(ولا زال مستمرا)**.

ونُنبه هنا إلى أن هذه التفريغات مُعِينة ومساعدة إلا أنها لا تغني عن الدروس الصوتية والمرئية، ولا

تكفي عن الاستماع إليها.

وما هذه التفريغات إلا جُهد من بعض طلاب الشيخ حفظه الله تعالى، رغبوا في المشاركة في الخير، والمساهمة في خدمة العلم وأهله، فكتب الله أجورهم وشكر سعيهم، والشيخ حفظه الله تعالى لم يراجع هذه التفريغات.

وفي الختام: فإننا ندعو الله ﷻ أن يبارك للشيخ في علمه وعمله، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يبارك له في إتمام ما بقي ونسأل الله له المزيد من فضله وأن يمتعنا بعلمه، وأن يطيل عمره على طاعته، وأن يتقبل ذلك منه، وأن يكون ذخرا له ورفعة وشرفا يوم لقاء مولاه، ورؤيته سبحانه وحلول رضاه.

وشكر الله للإخوة القائمين على هذا المشروع وكتب أجرهم، وجعله من العلم الذي ينتفع به، وتجري لهم به الحسنات، وتضاعف بسببه الدرجات.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

للتواصل وإرسال الملحوظات والتصويبات:

t.shoroh.dr.alnorstany@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم، إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ أما بعد:

فالكتاب الذي نريد أن ندرسه هو "العقيدة الواسطية" لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيميه -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-. هذا الكتاب الذي كُلفنا بمدارسته ليومين فقط ألفه شيخ الإسلام في قعدةٍ بعد العصر، وذلك بعد أن طلب منه أحدُ قُضاة واسط -وهو رضي الدين الواسطي-أن يكتب كتابًا في عقيدةِ أهل السنة، وقد تلكَّأ الشيخ في تلبية وتحقيق مراده، ولكن الرجل أصرَّ على أن يكتب الشيخ عقيدةً مُختصرة لأهل السُّنة والجَماعة.

يقول شيخ الإسلام بعد أن ألحّ الرجل على طلبه: «فكتبتُ له هذه العقيدة وأنا قاعدٌ بعدَ العصر»، وكان ذلك قبلَ المُناظرة الشهيرة التي كانت حولَ هذه العقيدة سنةَ سبعمائة وخمسة من الهجرة قبلها بسبع سنين.

وحدثت مناظرة شهيرة حول هذه العقيدة، ذكرَ شيخ الإسلام بعض وقائعها في كُتَيِّبٍ هو مُضمَّن ضِمن مجموع فتاواه في المجلد الثالث، ذكر بعض بقايا تلك المناظرة.

وفي المُناظرة تجلَّت جُرأة شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن معه الحق الصريح وأهلُ البدع تحيَّروا في تحديد الرجل الذي سيواجه شيخ الإسلام في هذه المناظرة، والرجل الذي حددوه وجاء إلى شيخ الإسلام، وبدأت المناظرة اكتشفَ الرجل أنه أمام بحرٍ ليس له أن يواجهه بتُرَّهات المنطق والفلسفة، وإنما هو قول الله وقول رسوله ﷺ وإجماعُ الصحابة.

وهذا الذي ركز عليه شيخ الإسلام في هذه العقيدة المختصرة.

هذه العقيدة انتهج فيها شيخ الإسلام منهجًا قد لا نجده في بعض الكتب الأخرى وهو منهج يمكن أن نسميه (**استنطاق النصوص**)، لم يذكر فيه مسألةً إلا وذكر قبلها أو بعدها نصًّا من الكتاب أو السنة أو إجماعًا للسلف الصالح.

أثناء المناظرة طلب الحاكم من شيخ الإسلام أن يَنسِبْ هذه العقيدة للإمام أحمد بحكم كونه حنبليًا وتنتهي المناظرة؛ لأن المُناظرون له كانوا يدَّعون أنه جاء بعقيدةٍ ليست لأحدٍ من الأئمة الأربعة؛ لأن العقائد التي أُلِّفت في ذلك العصر هي كُلَّها فلْسفة، ومنطق، وقال الحكيم الأول، والحكيم الثاني، وقال الحكماء، وقال الفلاسفة، أما هذا الكتاب فهو نصوصٌ وإجماع السلف.

فالحاكم لما وجَدَ احتِشَاد الطَّرفين طلب من شيخ الإسلام أن ينسبهُ للإمام أحمد وتنتهي المسألة، فأبى شيخ الإسلام، وأبى أشد الإباء وقال: «**ما جمعتُ إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم وليس للإمام أحمد اختصاصٌ بهذا، والإمام أحمد إنما هو مُبلغ العلم الذي جاء به النبي ﷺ ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يجئ به الرسول ﷺ لم نقبله، وهذه عقيدة محمد ﷺ**».

أيضًا قال شيخ الإسلام -وذكر هذا في أثناء ذِكرِهِ لوقائع المناظرة: «**قد أمهلتُ كلَّ من خالفني في شيءٍ منها، ثلاث سنين**»، وليس ثلاث أيام أو شهور، ثلاث سنين، «فإنْ جاء بحرفٍ واحدٍ عن أحدٍ من القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ﷺ يُخالف ما ذكرته فأنا راجعٌ عن ذلك»، وأي حجةٍ أبلغْ من هذه الحجة!

وهذه العقيدة المُختصرة هي ضِمْن التُّراث الذي جدَّد به شيخ الإسلام الذي هو مُجدد ذلك القرن، جدَّد به ما عَلِقَ بالعقيدة من الخرافات والبدع.

وهذه الرسالة افتتحها شيخ الإسلام بذِكر **مختصر لمعتقد أهل السنة**.

نسرد موضوعات هذه الرسالة بإجمال، حتى نكون على علم بإجمال ما فيها.

ذكر الرسالة ببيان موضوع الكتاب، وأنه عرض عقيدة أهل السنة والجماعة، ليست عقيدة فلان أو علَّان، ثم بيَّن مُجمل عقيدة أهل السنة والجماعة، وبيَّن أركان الإيمان الستة وأن عقيدتهم تتمركز حول هذه الأركان.

ثم بدأ في تفصيل الركن الأول وهو (الإيمان بالله) والإيمان بالله لا يكون إلا بتحقيق التوحيد، والتوحيد -كما تعرفون- أنواع ثلاثة: توحيد الإلوهية، وتوحيد الربوبية، والأسماء والصفات.

والنوع الذي استحوذَ على أكثر هذه الرِّسالة هو **توحيد الأسماء والصفات**.

بدأ بذكر هذا النوع من التوحيد، وهذا الموضوع طغى على الرسالة؛ لأن هذا الموضوع هو الذي كان يُثيرهُ أهلُ البدع على نطاق واسع، وهذا النَّوع من التوحيد هو أول الأنواع نشوءًا للانحراف فيه.

بيَّن هذا التوحيد أولاً ببيان عقيدة أهل السنة والجماعة إجمالاً، عقيدتهم في توحيد الأسماء والصفات وأنه يتلخَّص في إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو ما أثبته له رسوله ﷺ في سنته الصحيحة.

بعد ذِكر الإجمال ردَّ على الفئتين المُتقابلتين: أهل التعطيل، وأهل التشبيه، وبيَّن تميُّز أهل السنة في هذا الباب.

ثم بدأ بذكر الآيات الواردة في إثبات بعضها، ليس كل الصفات وإنما بعض الصفات.

والصفات التي حام حولها خلاف أهل البدع أو كثُرَ فيها خلافهم، ذكر فيها النصوص أكثر من الصفات الأخرى، ذكرَ الآيات دون أن يتدخَّل بشيءٍ من التعليقات، آيات في إثبات صفة الحياة، صفة العلم، والسمع والبصر سردها سردًا، وهذا هو الذي سميناه «**منهج استنطاق النصوص**»، فنحن أمام نصوص من كتاب الله لبيان صفات الله وأسمائه.

وفي بداية ذكره ذكر الصفات التي توجب الأخذ من مصدر معين، لماذا نقتصر في إثبات هذه الصفات والأسماء على الكتاب والسنة؟ أشار إلى هذا الموضوع وسيأتي بيانه.

بعد أن ذكر بعض الآيات بدأ بِذكر بعض الأحاديث على نفس النسق؛ لبيان أن السُّنة مُفسِّرة للكتاب، ثم في الأخير عرضَ لبعض النصوص التي قد يُظن التعارض بينها، **فمثلاً**: ذكرَ الجمع بين نصوص العلو ونصوص القُرْب، نصوص العلو والمعية، ذكر هذه النصوص لبيان أنه ليس هناك تعرض بين النصوص.

ثم أفرد موضوع القرآن، وموضوع صفة الكلام؛ لما لهذا الموضوع من أهمية من ناحية، ولما أثار حوله المُتكلِّمون من الشكوك والشُّبهات، أفرده وتحدَّث عنه باختصار.

ثم ذكر (**موضوع الرؤية**)، رؤية الله ﷻ.

وبهذا ينتهي حديثه عن الركن الأول (وهو الإيمان بالله ﷻ).

ثم ذكر ركن الإيمان باليوم الآخر، ذكر من مسائله: فتنة القبر، ومسألة المعاد، والميزان والحساب والحوض، وتعرَّض أيضًا لموضوع الشفاعة وأقسام شفاعات النبي ﷺ .

ثم ذكرَ رُكن الإيمان بالقدر، ذكر تعريفه ومراتبه ودرجات الإيمان به، وغيرها من المسائل المتعلقة به، ثم رجعَ إلى موضوع هو مَدْخَل للإيمان بالأركان الستة، وهو الإيمان، فذكر تعريفه، وذكر مسألة زيادته ونُقصانه، ومعالم منهج أهل السنة في تعريف الإيمان، وأيضًا في بعض المسائل المتعلقة به.

ثم ذكر موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب النبي ﷺ ، وردَّ على الفئتين المُتقابلتين في هذه المسألة، ثم أستطرد وبين مسألة كرامات الأولياء.

ثم عَرَضَ لموضوع قد يكون هو أنسب لبداية الرسالة: وهو مصادر أهل السنة والجماعة في العقيدة بل في الدين كلِّه، أخَّر هذا الموضوع -مع أنه يستحق التقديم-إلى ذلك الموضع؛ ليكون قارئ هذه الرسالة على علمٍ بتطبيق هذا المنهج وترسيخه أولاً، ثم التذكير في النهاية، وهذا منهج قد يكون هو الأولى في مثل هذه الرسائل، وفي مثل هذه الرسائل التي ألفت في ظرفٍ معيَّن، ذلك الظرف الذي اختلطت فيه آراء الخائضين في هذه الموضوعات في أهم شيء يُحدِّد منطلقهم فيه وهو المصادر، أن تُبين العقيدة، ما هي مصادرُك في بيان عقيدتك؟ ذكر هذا الموضوع.

وذكر أيضًا مُجمل تعامل أهل السنة مع المصادر، وهذا الموضوع كما قلت يصلُح أن يكون في بداية الرسالة، ولكن أخره لهذا الغرض.

ثم تطرّق إلى موضوع قلَّما نجده في كتب العقائد وخاصة في مثل هذه الرسائل المختصرة وهو: **بيان مسلك أهل السنة والجماعة العملي**، ذكر فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنزلته في الإسلام وتميز أهل السنة والجماعة فيه، ذكر فيه أيضًا التعامل مع الولاة والأمراء وإقامة الجُمَع والأعياد والجهاد معهم أبرارًا كانوا أم فُجارًا، وأن أهل السنة يرون النصيحة للأمة وأنهم يجمعون بين الصبر عند البلاء والشُّكر عند الرخاء، والرضا بمُرِ القضاء.

وذكر أيضًا دعوتهم إلى مكارم الأخلاق، ثم ذكر في الأخير أن طريقتهم هي دين الإسلام، وأن ما ذكره هنا لا يعني أنه استوعب طريقتهم؛ فلذلك ذكَّر بهذه النُّقطة في الأخير: وأن طريقتهم هي دين الإسلام بمصادرهِ وبنصوصِهِ وبالنَّظر إلى مكانة السابقين فيه هو دين الإسلام.

ثم ذكر بعضًا من أصحاب هذا المنهج وأنهم الصديقون والشهداء والصالحون، ذكر هذا في الأخير؛ ليذكِّر المخالفين أنهم عندما يكتبون في عقائدهم يقولون: هذه عقيدة فلان وعلان ويُفخِّمون بذكر الألقاب، ذكر شيخ الإسلام أن هذه العقيدة هي عقيدةُ الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

وما دام معك النبيون وهؤلاء فلن تستوحش بعقيدةٍ هم سلفُك فيها.

هذه خلاصة ما ذكره شيخ الإسلام في هذه الرسالة، ونبدأ بالرسالة، ونسأل الله أن يوفقنا لفهمها والعمل بما فيها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا.

وأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

(الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)، الهدى: هو كمال العلم، (وَدِينِ الْحَقِّ): هو كمال العمل؛ إذًا الذي جاء به النبي ﷺ فيه إشباع القوتين:

النظرية العلمية، والقوة العملية الإرادية.

وفيه ردٌّ على من يتجاذبه بعض الفرق فيستفرد بجانبٍ من الدين، وبعضهم يستفرد بجانب آخر من الدين ويدَّعون أنهم هم الذين يغطون هذا الجانب أو ذاك، لا، النبي ﷺ أُرسل بالهدى ودين الحق، (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)، بيانًا؛ وليظهره أيضًا بالنصر والتأييد.

(وكفى بالله شهيدًا)، نُلاحظ حتى الخطبة أكثرها يأخذها شيخ الإسلام، أو يُحاول أن يأخذها من النصوص، وهذه الشهادة التي يرفضُها المتكلمون، يذكر المتكلمون أن شهادة الله ﷻ فيما يتعلَّق بأسمائه وصفاته، لا عبرةَ بها، لماذا؟ لأن إثبات ربوبيته وإثبات وجوده لابد أن يكون بدليلٍ عقلي، وبعد أن تُثبته بدليلٍ عقلي تبدأ تأخذ من الرسول ﷺ فيما يتعلَّق بالمعاد والسمعيات، وفيما يتعلَّق بالمسائل التي ليستْ في صميم الألوهية؛ ولذلك يؤكِّد شيخ الإسلام هنا ما أكده الوحي أنه كفى بالله شهيدًا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾ [البقرة:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٤٣].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَمَّا بَعْدُ: فَهَذَا اعْتِقَادُ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ المَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

(النَّاجِيَةِ)، هي الناجية من الأهواء والبدع في الدنيا، والنَّاجية من النار في الآخرة هذا وصفُها، ذكر هنا شيخ الإسلام أوصاف كثيرة لهذه الفرقة: (النَّاجِيَةِ)، (المَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ)، (أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ)، أهل الشيء: أخصُّ الناس به، وهم أولى الناس بالسنة، فلذلك اختُصوا بالسنة وانتسبوا إلى السنة، و(**الجماعة**) لأن منهجهم هو كله مُستقى من الوحي فلا تفرُّق في منهجهم، إذًا هم أهل السنة وأهل الجماعة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، والإِيمَانِ بِالقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا الإيمان المجمل: ذكر فيه الأركان الستة، وفصَّل في ثلاثةٍ منها: وهو (الإِيمانُ بِاللهِ) والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، ولم يذكر مباحث الإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب والإيمان بالرسل، إلا ما يتعلق ببعض مباحث الإيمان بالرسل التي ذكرها في مبحث لما ذكر كرامات الأولياء؛ لأن هذا الموضوع يذكره المؤلفون في الإيمان بالرُّسل، وهذه المسائل التي لم يُفصِّل فيها شيخ الإسلام ليس معنى ذلك أن المَسألة فيها محسومة، وأنه لا خلاف فيها مع المُتكلمين وغيرهم من أهل البدع، وإنما اقتَصر على أبرز ما تميَّز به أهل السنة والجماعة ولم يذكر ما يتعلَّق بهذه الأركان الثلاثة.

أُنبِّه إلى شيء مهم: وهو أنه عندما أذكر المتكلمين فأقصد بهم جميع المتكلمين: الجهمية، والمعتزلة، ومن أخذ منهم ومنهم الأشاعرة والماتريدية، وإن كانت هناك مسألة ينفردُ بها بعضهم فلابد

أن نُبينها حتى لا نظلم أحد، وحتى لا ننسب إلى أحد ما لم يقله، فإذا قلت: (**عموم المتكلمين**)، فمعناه أنه يشمل الجميع عموم المتكلمين.

وهذه الأركان الثلاثة أيضًا هناك خلاف عريض بين أهل السنة وبين المُتكلمين فيها، ولكن لم يتطرَّق إليها شيخ الإسلام، ونحنُ مُحتارون فيما ذكره هنا؛ فلذلك لن نتطرَّق إلى ما لم يذكره هنا لضيق الوقت.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

(**وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ**)، لم يذكر موضوع الربوبية ولم يذكر موضوع الألوهية، فلذلك قال: (**وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ**)، هنا يربط شيخ الإسلام الموضوع بأصلِهِ حتى لا يظنُّ البعض أنه بصدد ذِكر مسألةٍ خلافيةٍ اختلفت فيها أنظار العلماء، يقول: (**وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ**)، إذًا ما سندرسُهُ هُنا هو الإيمان بالله، ومن الإيمان بالله أن نؤمنَ بهذه المسائل، إذًا ليستْ مسألة خلافية، ليستْ مسألة هي نتاج أنظار العلماء، (**وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ**)، أجمل ما يجب أن يقال في هذه المسألة؛ مسألة الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات.

ثم ذكر مميزات منهج أهل السنة في هذا الباب: (**مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ**)، هناك فئتان متقابلتان: منهج أهل السنة وسطٌ بين هاتين الفئتين، وهذه المسألة سيُذكِّر بها شيخ الإسلام عندما يذكر وسطية أهل السنة.

(**مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ**)، التَّحريف: دائمًا يكون في الدليل، والتعطيل يكون في المدلول؛ إذًا

الفرْق بين التحريف والتعطيل أن التَّحريف يكون في الدليل، والتعطيل يكون في المدلول.

قوله سبحانه: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه:٥]، يأتي المُبتدع فيُحرِّف في الدليل الذي هو هذه الآية، فيقول: معنى الاستواء: هو الاستيلاء، إذًا غيَّر في الدليل، حرَّف في الدليل، لماذا؟ ليصلَ إلى غاية وهي التعطيل، فيقول: الاستواء هو الاستيلاء، وبذلك نفى الاستواء الذي أثبته الله سبحانه في هذه الآية؛ إذًا **التحريف** يكون في الدليل، **والتعطيل** يكون في المدلول.

وفرق آخر: وهو أن التحريف وسيلة، والتعطيل غاية، لماذا يُحرِّف؟ ليعطل؛ لذلك نستطيع أن نقول: أن التَّحريف يُفضي إلى تعطيل.

(**وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ**)، التَّكييف أعم والتمثيل أخص.

التكييف: هو ذكر الكيفية، ذِكر كيفيةٍ غير مقرونةٍ بمماثل، هذا هو التكييف، أما إذا قارنته بمماثل فهذا هو التمثيل.

إذًا التمثيل فيه تكييف وزيادة، وكل مُمثِّلٌ مُكيِّف، وليس كل مُكيِّفٍ مُمثلًا؛ لأن التمثيل يزيد على التكييف بِذكر المُماثل.

(**مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ**)، يرد في هذه الجملة على منهج المعطلة، (**وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ**)، يرد فيه على الفئة المقابلة وهي المشبهة؛ إذًا منهج أهل السنة وسطٌ بين هاتين الفئتين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وآيَاتِهِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

لازال يشرح ما أجمله هناك: (**فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**)،

هذا كله شرح وتفصيل لقوله: (مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ).

(فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ)، ما وصفَ به نفسه لا ينفونه حتى لا يقعوا في التعطيل، (وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ)، بالتأويل، والتأويل الذي هو التَّحريف بعينهِ لا يستخدمونه في النصوص، فلا يُحرِّفون، ولذلك لا يقعون في التعطيل.

قوله: (وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وآيَاتِهِ).

أيضا هذا تابعٌ للفقرة الأولى: (مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ)، والإلحاد في اللغة: هو الميل، والإلحاد في أسماء الله سبحانه خمسة أنواع:

- **النوع الأول**: تسميةُ الأصنام بأسماء الله سبحانه، كاللات من الإلهية، والعُزَّى من العزيز وغيرها.
- **النوع الثاني**: تسميتهُ بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أبًا، وكتسميةِ المُتفلسِفة له بالمبدأ الأول والعلة الأولى وغيرها.
- **النوع الثالث**: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس كقول اليهود: أن الله فقير.
- **النوع الرابع**: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها.
- **النوع الخامس**: تشبيه صفاته بصفات خلقه، أو تشبيه صفات خلقه بصفاته.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لهُ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذه الجملة شرح لقوله: (وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ)، قال: (وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لهُ).

والسمي: هو المُسامي وهو المُماثل، والكُفء: هو المُكافئ وهو أيضًا المماثل.

والند: هو النظير والنظير هو المثل.

إذًا ليس هناك فرق كبير بين هذه الألفاظ، ذكرها وحشدها شيخ الإسلام هنا، لأن أولئك المُعطِّلة والمتكلمين لازالوا يتهمون أهل السنة بأنهم مُشبهة، فلذلك ردَّ عليهم شيخ الإسلام بهذا التأكيد وبهذا الترديد، (**وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لهُ**).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون؛ بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠- ١٨٢]، فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلاَمَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالعَيْبِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

(ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ) سبحانه، القياس الذي لا يستعمل في الإلهيات نوعان:

- قياس التمثيل.
- قياس الشمول.

فقياس التمثيل: يستوي فيه الأصل والفرع، فلا يُستعمل هذا القياس في حق الله ﷻ؛ لأنه ليس هناك أحدٌ يستوي معه، ولا يُستعمل أيضًا في حقه قياس الشمول؛ لأن قياس الشمول أفراده كله يستوون، ولا أحد أيضًا يستوي معه في شيءٍ من صفاته ولا في ذاته، ولكن يُستعمل في حقه قياس الأولى، وهذا ليس معروفًا بمصطلح القياس؛ لذلك هنا أجملَ شيخ الإسلام في هذه العبارة: ولا (ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهَ) وهو يقصد قياس تمثيل وقياس شمول.

أما قياس الأولى الذي يُستنبط من قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]، فهذا يستعمل في حقه؛ لأنه قياسٌ مشروط.

وهذا القياس طبعًا نُثبت به صفات الكمال، وننفي به صفات النَّقص، فإذا كان شيءٌ من مخلوقاته يتنزَّه من صفة فخالقه أولى بالتنزُّه من هذه الصفة، فإذا كان هناك كمالٌ مُطلق يتَّصِفُ به بعض المخلوقين، لا يتصفُ به أحد، الكمال مطلق لله ﷻ، ولكن أقول: إذا كان هناك كمال يتصف به بعض المخلوقين فخالقه أولى، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، فهذه صفاتُ كمال من أدلة إثباتها اتصافُ بعض مخلوقيه بهذه الصفات، فإذا كان بعض المخلوقين يتصِفُ بصفة العلم فخالقه أولى بهذه الصفة.

فهذا النوع من القياس يُسمى قياس الأولى وهو يستعمل في حقه سبحانه؛ لأنه مدلول هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وأيضًا قوله سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

ما قياس التمثيل وقياس الشمول، فلا يُستعمل في حقه سبحانه وهما المرادان في قول شيخ الإسلام هنا.

وفي قوله: (فَإِنَّهُ سُبْحَانَهَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ)، هنا يُشير شيخ الإسلام إلى الصفات التي توجب الأخذ من مصدر معين، لماذا نقتصر على الوحي فيما يتعلق بصفات الله ﷻ؟ لأن المتكلمين وهم أيضًا ينتسبون إلى الإسلام يرون أن ما يتعلق بصفات الربوبية والألوهية لا يجوز أن نستدل فيها بما ورد في النصوص، لأنه يستلزم الدور -هكذا يقولون.

ويقولون: الإنسان مزوَّدٌ بالعقل الذي يكتشف به صفات خالقه، فلماذا نلتزم بقول الله وقول رسوله فيما يتعلق بصفات الله ﷻ؟

أجاب عنه شيخ الإسلام بهذه الجملة: (فَإِنَّهُ سُبْحَانَهَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ)، إذًا الصفات التي تُوجب الأخذ من مصدر مُعيَّن هي أربعة:

العلم، (أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ)، إذا كان هو أعلمُ بنفسه فهل هناك من هو أعلم به منه؟! ونحن في موضوع يتعلَّق به، إذًا لابد أن نلتزم بما أخبر به في كتابه.

(وَأَصْدَقُ قِيلاً)، إذًا العلم والصدق.

(وَأَحْسَنُ حَدِيثًا)، الفصاحة والبلاغة.

وشيءٌ أخر ذكره شيخ الإسلام في كتب أخرى وهو النصح، هذه الأمور الأربعة هي موجبات الأخذ ولذلك نحن نلتزمُ بها.

فبعض من نأخذ منهم لا علم لديهم بالألوهيات، أرسطو الذي كان طول حياته يعبد الهياكل لا عِلم له بالألوهيات، فلا نأخذ منه، رجلٌ مات وثنيًا، هل نأخذ منه ما يتعلق بالإله الذي لم يعرفه؟ إذًا ليس لديه علم، العلم أولاً.

قد يكون رجل عنده علم ولكن لا يكون صادقًا، فالمصدر هذا لابد أن يكون فيه العلم والصدق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

وقد يكون العلم والصدق متوافران، ولكن لا يستطيع أن يُبَيِّن، فلا يستطيع أن يوصِل ما لديه من العلم لغيره، والله ﷻ أحسنُ حديثًا، هؤلاء المتكلمون وأشياخهم هل يزيدون على الله ﷻ وعلى رسله عليهم الصلاة والسلام في الفصاحة والبلاغة؟ والله لو تقرئون كتبهم ستتعبون من التعقيدات التي في كتبهم، كتبهم تُتْعِبُ من مُجرد القراءة، وليس فيها من الفصاحة والبلاغة شيء، وبعض من أوتوا الفصاحة والبلاغة -سبحان الله- انتكس بإعجابه بالكفار بطريقة المناطقة، يُريد أن يُقلد المناطقة والمتفلسفة؛ فلذلك لا تجد في كتبهم شيء من هذا القبيل.

إذًا: العلم والصدق والفصاحة.

قد يكون رجلٌ عنده علم، وعنده صدق لا يكذب، وعنده فصاحة وبلاغة، ولكن لا يُريد النُّصح لك، والله ﷻ ورسله هم عندهم النصح، الله ﷻ عنده النُّصح لخلقه ورسله عندهم النصح لمن بُعِثوا إليهم؛ إذًا هذه الصفات هي التي تُوجب الأخذ منه، العلم والصدق والفصاحة وإرادة الخير وهو النصح.

إذًا الله ﷻ أعلمُ بنفسه وغيره، وأصدق قيلاً، وأحسنُ حديثًا من خلقه، (ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون؛ بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ : ١٨٢]، (فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ)، وهم أنواع، (وَسَلَّمَ عَلَى المُرْسَلِينَ؛ لِسَلاَمَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالعَيْبِ)، لم يُسلم على غير المرسلين ولذلك لن نسلم إذا أخذنا من غير المرسلين.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ، فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَتْ بِهِ المُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هنا أشار أيضًا إلى شيء من منهج أهل السنة في توحيد الأسماء والصفات، (وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ)، هذا من أهم ما يتميَّز به منهج أهل السنة، ومن أهم ما نجده في الكتاب والسنة فيما يتعلَّق بتوحيد الأسماء والصفات، ففيه النفي والإثبات.

الفلاسفة عندهم النفي المُجرد، والمتكلمون يتبعونهم بقدر قربهم، كل من كان قريبًا منهم يفقد من الإثبات بقدر قربه من الفلاسفة؛ فلذلك نجد أن المُتكلِّمين يتضايقون جدًا في الإثبات، أي صفة يُثبتونها يجدون مشقة كبيرة في إثباتها؛ فلذلك تجدهم يتنافسون في النفي؛ لأن الإثبات يُناقض أصل التوحيد عندهم، فكلما أثبت كثُر القدماء عندك، فصار عندك إشكالٌ في أصل التوحيد -لاحظوا كيف دخل الشيطان وكيف شوش عليهم- كل ما أثبت ما أثبته الله لنفسه كنتَ مُناقضًا للتوحيد عندهم.

ولذلك لابد أن نعرِفْ أن الله ﷻ جمعَ فيما وصفْ وسمَّى به نفسه بين النفي والإثبات، ولابد أن نعرِف أن الإثبات مُفصَّلٌ كما سيأتي، أن الله ﷻ سميع، بصير، قدير، مُريد، الإثبات مفصل.

أما النفي فهو في العموم مجمل، وطريقةُ المتكلمين هي العكس النفي هو المفصل ليس يمينًا، ليس شمالاً، ليس.. ليس.. ليس، وهذا الذي نجده عندهم، النفي عندهم مُفصَّل، والإثبات مجمل.

وقوله: (فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَتْ بِهِ المُرْسَلُونَ)، هذه كلها تأكيدات من شيخ الإسلام على أن هذه العقيدة التي يكتبها هي عقيدة أهل السنة والجماعة، لاحظوا أن لقبَ أهل السنة والجماعة، هذا اللقب استأثر به أقوام لا يُمثلون هذه العقيدة، فهم أهل السنة والجماعة عند الإطلاق

عند الكثيرين؛ ولذلك يؤكد شيخ الإسلام أن هذه العقيدة وليست تلك العقائد، بل هي عقيدة أهل السنة والجماعة، (فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَتْ بِهِ المُرْسَلُونَ)، وعقيدتهم هي التي جاء بها المرسلون، (فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ)، هذا أيضًا سيُذَكِّرُ به في آخر الرسالة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

هنا بدأ شيخ الإسلام في شيءٍ من التَّفصيل فيما يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، وقبل أن يذكر الآيات المُتعلِّقة بأنواع من الأسماء والصفات تأكيدًا منه لأهمية هذا الباب، ذكرَ أن الجملة التي ذكرها دخل فيها (مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ)، وهي السورة الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ، إذًا الموضوع له أهميته، لماذا تعدل ثلث القرآن؟ لأن فيها بيان التوحيد، والقرآن ثلثه توحيد وثلثه قصص وثلثه أمرٌ ونهي؛ إذًا هذه السورة فيها بيان لثلث مواضيع القرآن، فهي تعدل ثلث القرآن كما هو في نص الحديث: «**أنها تعدل ثلث القرآن**».

وأيضًا هنا يشير شيخ الإسلام إلى أن الآيات التي استدلَّ بها بعض المتكلمين للتعطيل هي من أبرز الآيات لإثبات الصفات، هذه السورة استدل بها بعض المتكلمين للتعطيل فقالوا: قل هو الله أحد ولا يمكن أن يكون أحدًا إذا أثبتنا له الصفات، لأن إثبات الصفات فيه تكثيرٌ للقدماء.

ولذلك يُبيِّن شيخ الإسلام أن هذه السورة فيها بيان لهذا التوحيد بالإثبات والنفي، وليس فيها شيءٌ مِنْ التَّعطيل.

(﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾)، فيه نفي كل شريك.

(﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾)، فيه إثبات كل الكمالات، إذًا الصمدية تثبت الكمال المنافي للنقائص، والأحدية تثبت الانفراد بذلك، والله ﷻ له كل الكمالات، وهو أحد أي: ينفرد بتلك الكمالات.

(﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾)، من تمام صمديته سبحانه أنه منزهٌ أن يكون له أصل أو فرع، وهذا من تمام صمديته سبحانه.

(﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾)، أيضًا فيها نفيٌ للشركاء والأنداد، نفي المُماثلة والمُشاركة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ علْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قَالَ الشَّارِحُ -وَفَّقَهُ اللهُ-:

(﴿اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾)، فيه إثبات للإلوهية، إثباتٌ لصفة الحياة وصفةُ القيومية وهاتان الصفتان إليهما مرجع جميع الصفات، فصفة الحياة اسم الحي مستلزم لجميع الصفات وهو أصلها؛ ولذلك هذه الآية هي أعظم آية في القرآن الكريم.

(الْقَيُّومُ) هو القائم بنفسه والمقيم لغيره، القيوم هو القائم بنفسه أي لا يحتاج في قيامه إلى أحد، والمقيم لغيره؛ أي: الجميع مُحتاجون إليه في قيامهم، ففيها معنى الصمدية وفيها أيضًا معنى الخلق والتدبير.

(الْحَيُّ الْقَيُّومُ) هما يجمعان جميع معاني الأسماء؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقوله إذا اجتهد في الدعاء، وقال الإمام ابن القيم في نونيته:

ولـه الحيـاة كمالهـا فلأجـل ذا ... مـا للممـات عليـه مـن سـلطان

وكـــذلك القيّـــوم مِـــنْ أوصـــافِهِ مَـــا للمنـــام لديـــه مِـــنْ غشـــيان
وكـذاك أوصـاف الكمـال جميعهـا ثبتـــتْ لَـــهُ ومـــدارَها الوصـــفان

والوصفان هما الحي والقيوم.

(﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾)، هذا فيه إثبات تمام ملكه، (﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾).

أيضًا من بيان كمال ملكه من ذلك: أنه ليس له شريك، فإن من شفع عنده بغير إذنه ونفَّذ له ما شفع به، فهذا يُنْقِصُ من كمال قدرته بقدر ما فقدهُ، لأنه نفَّذ لغيره وشفعَ عنده أحد بغير أذنه، والله ﷻ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾، وذلك لتمام قدرته وملكه.

(﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ علْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء﴾)، فيه إثبات كمال علمه، وسعة علمه.

(﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾)، ذكر سعة كرسيه وأنه وسع السموات والأرض.

(﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾)، يعني: السموات والأرض وما بينهما، يحفظه ولا يُلحقه شيء من التَّعب والكلال في حفظِهِ، هذا أيضًا لبيان لكمال قدرته، إذًا هو يتضمَّن كمال القدرة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَيْ: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي لَيْلَةٍ لَم يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] . وَقَولِهِ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ [الحديد:٣].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

(وَقَوْلِهِ) من هنا حتى الأخير سيكون العطف على قوله: (وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ)، (وَقَوْلِهِ) (وَقَوْلِهِ) (وَقَوْلِهِ).. إلى الأخير، أي: دخل في الجملة التي ذكرها هنا إجمالاً، دخل فيها ما ذكره في قوله كذا، وفي قوله كذا، وفي قوله كذا، مِنْ هنا بدأ بذكر الآيات التي فيها إثبات لأسمائه وصفاته.

(وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾).

قال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**». إذًا هذا الحديث فيه تفسير هذه الأسماء.

واسمه سبحانه (**الباطن**) فيه أيضًا معنى القُرْب، وأيضًا فيه معنى الاحتجاب، واسمه (**الظاهر**) يتضمن أيضًا العلو، «**أنت الظاهر فليس فوقك شيء**»، فأثبت له الظهور وجعل موجب الظهور أنه ليس فوقه شيء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[التحريم: ٢]، وقوله: ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرِ﴾[التحريم: ٣]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[سبأ: ٢]، ﴿وَعِندَه مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾[فصلت: ٤٧].

قَالَ الشَّارِحُ -وَفَّقَهُ اللهُ-:

من قوله: (﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾) إلى قوله: (﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى﴾) فيه بيان صفتي العلم والحكمة، وصفة العلم خالف فيها فِرَق أبرزهم الفلاسفة الذين ذهبوا إلى أن الله ﷻ يعلم الكليات دون الجزئيات، أي: أن الله ﷻ يعلم أنه سيخلق مثلاً سيخلق بني الإنسان، ولكن لا يعلم أن زيدًا سيُخلق في يوم كذا في مكان كذا هذه هي الجزئيات، ويعلمُ مثلاً أن الإنسان ناطق، ولكن -تعالى الله علوًا كبيرًا- لا يعلم أن فلانًا يتحدث في وقت كذا في مكان كذا، فهم يرون أن الله ﷻ يعلم الكليات دون الجزئيات.

وبعض من تأثَّر بالفلاسفة لما ردَّ عليهم -ومنهم الغزالي- رد عليهم في كتابه «**تهافت الفلاسفة**» وهذا الكتاب من أنفس الكتب التي رُدَّ بها على الفلاسفة على ضعفٍ كبيرٍ فيه، الغزالي لما ردَّ عليهم كفرهم صراحةً لمسائل وبدعهم لمسائل، كفرهم **لثلاثة مسائل**:

- **منها**: إنكارهم لعلم الله ﷻ بالجزئيات.
- **ومنها**: مسألة المعاد.

إذًا أبرز من خالف في هذه لصفة الفلاسفة.

والفرقة الثانية: هم غلاة القدرية الذين يزعمون أن الله ﷻ لا يعلمُ أفعال العِباد إلا بعد حدوثها هؤلاء هم غلاة القدرية وقد انقرضوا، والذين خلفوهم هم القدرية، المتأخرون وهم المعتزلة، غلاة

القدرية كانوا ينكرون العلم أيضًا.

فهذه الآيات فيها إثبات صفة العلم: (﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾) ، (﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾).. إلى آخر هذه الآيات.

وصفةُ الحكمة أيضًا هذه الصفة التي أثبتها الله ﷻ في كتابه خالف فيها الجهمية والأشاعرة، فَهُمْ يُنفون صفةَ الحِكمة ويُسمونها غرض؛ ولذلك تجدون في كتبهم عنوانًا عريضًا: «**نفي العلل والأغراض**»، ويقصدون نفي الحكمة؛ لأنهم دائمًا يُسمون الحق ويُعبرون عنه بتعبير سيءٍ حتى يُنفروا الناس عنه، يُسمون الحكمة غرضًا، ويقولون: لا غرض لله ﷻ في خلق أحد أو في إماتة أحد أو في فعل كذا أو في فعل كذا، والله ﷻ هو العليم الحكيم له الحكمة البالغة في أفعاله.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

وَقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

قَالَ الشَّارِحُ -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هاتين الآيتين أثبت الله ﷻ صفة القدرة: (﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾)، وأيضًا أثبت صفة اسمه الرزاق وذو القوة المتين، **والمتين**: هو المتناهي في القوة.

وفيها إثبات صفة القدرة وإثبات اسمه المتين والرزاق.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] . وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨] .

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هنا إثبات صفة السمع والبصر، وبعض المتكلمين أَوَّلَهُمَا بالعلم؛ لأنه لما يتأتى لهم تفسيرها تفسيرًا صحيحًا، فأولوها بالعلم، وقالوا: فائدةُ السمع أن تُدرك المسموع، وفائدةُ البصر أن تُدرك المبصَر، فإذا أدركتَ المسموع والمبصَر فقد أحطت به علمًا، فيقولون: نحن نُثبتْ العلم ولا نُثبتْ السمع والبصر؛ لأنه يتضمن التَّشبيه.

والله ﷻ أثبت لنفسه السمع والبصر، فنُثبت له السمع والبصر، كما نُثبت له صفةُ العلم في الآيات المُتكاثرة التي فيها إثبات صفة العلم، والسمع في نصوص الكتاب على نوعين:

النوع الأول: السمع العام، ويراد به إدراك الصوت، فسمع الله ﷻ يشمل جميع الأصوات لأنه سميع لكل مسموع، تقول عائشة رضي الله عنها: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**»، **لقد جاءت المُجادلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة يَخفى عليَّ بعض كلامها فأنزل الله قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾**».

النوع الثاني: السمع الخاص، وهذا النوع يتضمن الإيجاب والقبول، وهذا يتعلَّق بمشيئةِ الله وقدرته كقوله: «**سمع الله لمن حمده**»، وكقول الخليل عليه السلام: ﴿**إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾، فالله ﷻ يقبل ويتقبل ممن شاء أن يتقبل منه.

أما البصر فهو إدراك جميع المبصرات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾[الكهف:٣٩]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلـكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣].

وَقَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[المائدة:١]. وَقَوْلِهِ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء﴾[الأنعام:١٢٥].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هنا في هذه الآيات فيها إثبات لـ(صفةِ الإرادة)، وهي في كتاب الله ﷻ **على نوعين**:

النوع الأول: إرادة شرعية، وهي الإرادة الدينية، وهي تتضمَّن محبته ورضاه، وهي لا تتعلَّق إلا بالطاعات هذا النوع من الإرادة لا تتعلق إلا بالطاعات، وهي المقارنة للأمر والنهي دائمًا وكذلك هي المقارنة للحب والبغض والرضا والغضب، كقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] شرعًا، ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٦].

النوع الثاني: إرادة كونية خلقية، وهي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث، وهذه الإرادة تُسمى المشيئة، فهناك فرقٌ بين الإرادة والمشيئة، الإرادة تُطلق على الإرادة الشرعية والكونية، والمشيئة لا تُطلق إلا على الإرادة الكونية، هذا هو الفرق بين الإرادة والمشيئة.

الإرادة الكونية: هي مشيئته لما خلقه، وجميع المخلوقات وجميع الحوادث داخلة في مشيئته وإرادته الكونية، وهي المُقارنة دائمًا للقضاء والقدر والخلق والقدرة، كقوله سبحانه: (﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]) وأيضًا قول نوح عليه السلام: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤].

ومن هذا النوع قول المسلمين: (**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**).

ومن النوع الأول -الإرادة الدينية- قولهم لمن يفعل القبيح: (**هذا يفعل ما لا يريده الله**) أي: لا يريده شرعًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧] ، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] . وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١] . وَقَوْلِهِ سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤] . وَقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤] . وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] .

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الآيات إثبات صفة المحبة، وبيان أن الله ﷻ يُحِبُ ويُحَبُ، الله ﷻ يُحب الطائعين من عباده ويُحبه الصالحون من عباده، وإثبات محبةُ الله ﷻ لعبادِهِ المؤمنين ومحبتهم له أصل دين الخليل عليه السلام، وأول مَنْ عُرِفَ في الإسلام أنه أنكرَ أن الله يُحِبُ ويُحَبُ هو الجهم بن صفوان وشيخه الجعد بن درهم، **وبعض من أثبتوا المحبة أوّلوها بالإرادة أو بلازم الإرادة، كثيرٌ من المتكلمين أوّلوا المحبة بالإرادة أو بلازم الإرادة كالإحسان**، والذين يخالفون أهل السنة والجماعة في هذه الصفة -في صفة المحبة- هم طائفتان:

الطائفة الأولى: الذين يُنكرون مَحبة الله لعبادِهِ ومحبة عبادِهِ لَهُ، يُنكرون المحبة من الجهتين وهم الجهمية، ينكرون أن الله ﷻ يُحِب أو يُحَب.

الطائفة الثانية: أثبتت محبة العباد له وأنكرت محبة الله ﷻ للعباد، وهم الأشاعرة، والجهمية والأشاعرة يلتقون في تأويل محبة الله ﷻ لعبده، الجميع يؤلون، ويختلفون في إثبات محبة العبد لربه،

فالجهمية يَنفون والأشاعرة يثبتون، والجميع يؤولونها بالإرادة أو بلازم الإرادة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر: ٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب:٤٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:٥٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يونس:١٠٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

صفة المحبة وأيضًا صفة الرحمة التي ذكر شيخ الإسلام هذه الآيات لإثباتها هي من الصفات الفعلية، وهنا في هذه الآيات إثبات صفة الرحمة، وقد أوَّلها المخالفون مثل صفة المحبة بالإرادة أو بلازم الإرادة.

والصفات الاختيارية أو الصفات الفعلية لم يثبتها أحدٌ من المُتكلمين، إذا قلنا إن هذه من الصفات الاختيارية أو من الصفات الفعلية فمعناه أن جميع المُتكلمين بأصنافهم وأطيافهم يُنكرون هذه الصفات.

أما الصفات الذاتية أو الصفات الخبرية؛ ففيها خلاف بين مُتقدميهم ومتأخريهم.

أما الصفات الاختيارية والفعلية فينكرها الجميع.

هنا إثبات صفة (**الرَّحمة**)، وفيها إثبات رحمة الله ﷻ، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه يرحمُ العباد بمشيئته وقدرته، والمخالفون -كما قلت- يؤولونها بالإرادة القديمة أو صفة أخرى تكون قديمة، ولا يُثبتونها صفة اختياريه متعلقة بمشيئته وقدرته وأن الله ﷻ يرحم من شاء ومتى ما شاء، هم لا يثبتون الصفات الاختيارية، والصفات الاختيارية دائمًا تكون متعلقة بمشيئته وقدرته يفعلها الله ﷻ متى ما شاء وتكون متعلقة بمشيئته.

وقوله: (وَقَوْلِهِ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]).

في هذه الآية إثبات صفة الرضا وهي أيضًا من الصفات الفعلية.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء:٩٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾[محمد:٢٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[الزخرف:٥٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾[التوبة:٤٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[الصف:٣].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

في هذه الآيات إثبات غضبه سبحانه وسخطه وأسفه والكره والمقت، وهذه كلها ترجع إلى الصفات الاختيارية، ولا يثبتها أحدٌ من المتكلمين، لأنهم يقولون: هذه الصفات تستلزم ما لا يليق به سبحانه، لأن الغضب يكون من الانفعال ويكون بتأثير، والله ﷻ لا يؤثر فيه شيء، وأيضًا هذا يستلزم التشبيه، هكذا يقولون.

والصحيح أن الغضب على من يستحق الغضب من القادر على عقوبته، وليس من العاجز صفة كمال، وجميع الصفات التي يثبتها الله ﷻ هي صفات كمال وليس فيها نقص بأي وجه من الوجوه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، وَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨] ، وَقَوْلِهِ: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢١: ٢٢]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلآئِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

في هذه الآيات إثبات الإتيان والمجيء أيضا، وهما من الصفات الاختيارية،

(﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ﴾)، هم يؤولون إتيان الله ﷻ بإتيان أمره أو بإتيان ملائكته، ولاحظوا أن الآيات التي ذكرها شيخ الإسلام هنا تنفي جميع تأويلاتهم.

(﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾)، يعني لا يمكن أن تؤول إتيان الله ﷻ بإتيان الملائكة لأنه مذكور هنا.

(﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾)؛ إذًا فيها نفي لجميع ما أوَّلوه.

(﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ﴾)، هذا الغمام هو الذي ينزل الله ﷻ فيه لفصل القضاء، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلآئِكَةُ تَنزِيلاً﴾؛ إذًا الإتيان والمجيء من الصفات الفعلية التي ينكرها جميع المتكلمين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

فيه إثبات صفة الوجه لله ﷻ، وثبوت الوجه والصورة لله ﷻ جاء في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة، وهو من الصفات الخبرية، والصفات الخبرية هي الصفات السمعية التي لا تؤخذ إلا من الخبر، وهم قسموا الصفات بالنظر إلى مصدر العلم بها إلى صفات عقلية وصفات خبرية.

فالصفات العقلية: هي الصفات التي تُعلم بالعقل كالصفات السبع.

والصفات الخبرية: هي التي لا تعلم إلا من الخبر وهو السمع.

وهذا التقسيم أصله من المتكلمين ولكن يستقيم أيضًا على أصل أهل السنة باعتبار أن الصفات العقلية هي الصفات التي تُثْبَتْ بالعقل والنقل معًا، فالصفات العقلية عندهم هي تثبت بالعقل والنقل والأصل فيها هو النقل، والعقل أيضًا يدل على إثباتها، ولكن أصل التقسيم من المتكلمين، والصفات الخبرية هي الصفات التي لا دخل للعقل فيها وإنما مرجعها إلى الخبر، والصفات العقلية هي التي تثبت بالعقل.

والصفات العقلية هي سبعة معروفة عند الأشاعرة وثمانية عند الماتريدية.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء﴾ [المائدة:٦٤].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

هنا إثبات صفة اليدين لله ﷻ (﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾) وأغلب من نفى هذه الصفة أو عطلها يؤولها بالقدرة، ونص الآية يأبى عليهم.

(﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾) هل يمكن أن يقال: بقدرتي؟ إذًا هذه التثنية هي نص في إثبات مدلول الكلمة، وأن المراد باليدين هما اليدان وليس القدرة.

(﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء﴾).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣: ١٤] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] .

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

هنا في هذه الآيات إثبات صفة العين: (﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾)، (﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾) (﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾)، وهذه الصفة جاء إطلاقها بلفظ الجمع وبلفظ المفرد كما في هذه الآيات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾[آل عمران: ١٨١]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[الزخرف: ٨٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾[العلق: ١٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢١٧: ٢١٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة: ١٠٥].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

في هذه الآيات الكريمات إثبات السمع وقد تقدم ذكر بعض الآيات فيه، وأيضًا إثبات الرؤية، وفيها أيضًا بيان أن الله ﷻ قد يخص بعض المخلوقات بالنظر والاستماع، وفيها أيضًا بيان أن سمع الله ﷻ ورؤيته في هذه الآيات ونظائرها يراد به علمه بذلك وأنه يعلم ذلك هل هو خير أو شر، وأنه يثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات، وهذا كله مراد في هذه الآيات في إثبات سمعه وليس فيها أنه مجرد أثبات السمع، وإنما هذه الأمور أيضًا ملاحظة في هذه الآيات، وعموما فيها إثبات سمعه ورؤيته.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] ، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥: ١٦] .

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

في هذه الآيات إثبات المحال والمكر والكيد، والمحال من المماحلة وهي شدة المماكرة، فهو سبحانه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون، وهذا لأنه شديد المحال،

(﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾) ، (﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾).

الذين ينكرون ما أثبتته هذه الآيات يقولون: أنه قد سمي باسم ما يقابله على طريق المجاز، وأنه لا يطلق عليه أنه خير الماكرين وأنه يمكر، مع أن الله ﷻ أطلق على نفسه، ومسميات هذه الأسماء من المكر والكيد إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كان ظلمًا، أما إذا فعلت بمن يستحق فهو عين العدل؛ فلذلك ليس فيه تنقص لله ﷻ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾[المنافقون: ٨] ، وَقَوْلِهِ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] .

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الآيات إثبات عفوه ومغفرته ورحمته وعزته، وإثبات العزة لله ﷻ وإثبات عفوه ومغفرته ورحمته جاء في عديد من الآيات، والعزة معناها يدور على القوة والامتناع والغلبة، تقول العرب: «عزَّ يَعَزُ» بالفتح إذا قوي وصلب، «عز يَعِزُ» بالكسر من الامتناع، «عز يَعُزُ» بالضم إذا غلب؛ ولذلك العزة تتضمن هذه المعاني الثلاثة: القوة والامتناع والغلبة، «عزَّ يَعَزُ» للقوة والصلابة، «عزَّ يَعِزُ» للامتناع، «عزَّ يَعُزُ» للغلبة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] .

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الآية إثبات أن اسم الله مبارك تنال معه البركة، وفيه إثبات الجلال والإكرام لله ﷻ وهو يستلزم كمال صفاته، فإن الله ﷻ إذا كان مستحقًا للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفًا في نفسه بما يوجب ذلك، أي يوجب الإجلال والإكرام.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٤]. وَقَوْلِهِ: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾[البقرة: ١٦٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[الإسراء: ١١١]. وَقَوْلِهِ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التغابن: ١]، وَقَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:١: ٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٩١-٩٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٧٤]. وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[الأنعام:٣٣].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الآيات كلها بيان تنزيهه سبحانه عن النقائص، من قوله: (﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾)، إلى قوله: (﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾) في هذه الآيات بيان تنزيهه سبحانه عن النقائص تارة بنفيها وتارة بإثبات أضدادها، وسبق أن ذكرنا أن الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات منه أن نعتقد أنه يتضمن الإثبات والنفي، وأن الإثبات مفصل والنفي مجمل، أيضًا يتعلق بذلك الموضوع أن النفي لا يكون مقصودًا لذاته، إنما النفي غالبًا يكون لإثبات كمال ضده، لأن النفي المجرد لا كمال فيه، هذا الشيء لا يسمع، لا يعلم، لا يقوم، لا يقعد، هل أثنيت عليه؟ لا كمال فيه؛ لذلك النفي لا يكون إلا

لبيان كمال ضده، وفي هذه الآيات إثبات تنزيهه سبحانه عن النقائص تارة بنفيها وتارة بإثبات أضدادها، ونفى الله ﷻ فيها الكفء والند والمثل والسمي والشريك والولي من الذل، (وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ)، المتقون هم أولياء الله ﷻ ولكن ليس من الذل، فنفى فيه أن يكون له وليًا من الذل.

أيضًا نفى عنه الولد، وكل ذلك إثبات غاية الكمال له في الأسماء والصفات والأفعال.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ، قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الآيات إثبات الاستواء لله ﷻ وهو علو خاص، وجميع آيات الاستواء من أدلة إثبات العلو لله ﷻ، الاستواء هو علو خاص، سيذكر شيخ الإسلام الآيات الدالة على علوه ﷻ بعد هذه الآيات، أما هذه الآيات فهي لإثبات استواءه ﷻ على العرش، ونصوص الاستواء من أدلة العلو، الاستواء كما قلت علو خاص.

ومن الفروق بينه وبين العلو: أن الاستواء صفة فعلية، الله ﷻ استوى على العرش بعد ما خلق السماوات والأرض؛ إذًا هذه الصفة متعلقة بمشيئته وقدرته، أما العلو فصفة ذاتية، فالصفة الذاتية هي التي يتصف بها سبحانه أزلاً وأبدًا.

هذه الآيات التي فيها إثبات الاستواء، وكثرة هذه الآيات لم تشفع لهذه الصفة عند المتكلمين ونفوها وأوَّلوها بالاستيلاء، قالوا: أن الله ﷻ استوى أي: استولى.

والاستواء من الصفات الفعلية، ومعناها عند السلف لا يخرج عن أربعة معاني، ذكرها الإمام بن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته يقول:

ولهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر، وقد علا، وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو أربع وأبو عبيدة صاحب الشيباني

أقوال السلف في معنى الاستواء كثيرة هي في مجملها ترجع إلى هذه المعاني الأربعة، والمخالفون اعتقدوا أن ظاهر هذه الآيات -آيات الاستواء-هي كاستواء المخلوقين، واستواء المخلوقين يكون فيه استواء يحتاج فيه المستوي إلى غيره، فالذي يستوي على الخيل هو محتاج على ما يستوي عليه وسيسقط إذا سقط ما استوى عليه، وفيه احتياج ينزه الله ﷻ عنه.

فنحن نقول: سبحان الله! هذه المناقشة يعني هي موجهة لرب العالمين نفسه، أنت تناقشه وتقول له: أنت أثبت لنفسك الاستواء وما كان ينبغي أن تثبت لنفسك، لأنه يستلزم أن تكون محتاجًا ولست محتاجًا، أليس كذلك؟

في كل الصفات التي يهذي فيها هؤلاء المتكلمون ويقولون: يستلزم، ويستلزم، ويستلزم؛ إذًا هذا الاستلزام -نعوذ بالله-كان يغفل عنه الذي تكلم بهذه الآيات؟! وإذا تدبرنا يعني مجرد التفكير في هذا الموضوع يجعل الواحد على الأقل لا يتحدث بما يراوده من الشك والوسوسة لأنها آيات وأنت تناقش رب العالمين، هذا **أولاً**.

وثانيًا: أنت أولت الاستواء بالاستيلاء، ما هو الاستيلاء الذي رأيت أنه يليق بجلال الله وكماله بينما لم يكن لائقًا به اللفظ الذي استعمله رب العالمين لنفسه؟ أهو الاستيلاء الذي يكون بالمغالبة؟ فيقول: لا، الاستيلاء الذي يكون بالمغالبة يُنزه الله ﷻ عنه، أنا أثبت له استيلاء يليق بجلاله وكماله، فنقول له: لو نزهت وقدست اللفظ الذي استعمله رب العالمين لنفسه، وقلت: استواء يليق بجلاله وكماله، لكنت أقرب إلى تقديس كلام ربك، أما أنك ترد كلام ربك ثم تأتي ببديل هو أسوأ منه، وهو لا يمكن إلا أن يكون أسوأ منه، استيلاء يليق بجلاله وكماله.

إذا لم يقل هذا فقد وقع في التشبيه من أوسع أبوابه أليس كذلك؟ والاستيلاء لا يكون إلا بالمغالبة، فمن الذي غالب الله ﷻ على العرش حتى استولى عليه؟

وثالثًا: الاستواء هم غالبًا يقولون، بل دائمًا يقولون: أن هذا التأويل ليس خروجًا عن مقتضى اللغة،

لما نرجع إلى القواميس نجد أن الاستواء يأتي على سبعة عشر معنى أو ستة عشر معنًى أو أكثر أو أقل، فإذا أخذنا معنى من هذه المعاني الكثيرة نكون داخل إطار هذا اللفظ ما خرجنا من معاني الاستواء، فلماذا يُرد علينا؟

نحن نقول: أن الألفاظ التي تُستعمل في الجمل يحددها السياق والسباق، صحيح أن الاستواء يأتي على معانٍ كثيرة، ولكن إذا استعمل في الجملة واستعملها من هو خبير باللغة لا يكون فضفاضًا مثل ما هو في المعجم، السياق والسباق يحدده، فلا يمكن أن يكون على أكثر من معنى في السياق لأن السياق يحدده، وهذا السياق الذي أُستعمل فيه هذا اللفظ وعلى نسق واحد في سبع آيات، السياق يأبى ما جئت به من المعنى.

وأخيرًا: المعنى الذي ذكرته للاستواء أصلا لم يذكره أئمة اللغة المتقدمون، نقول المتقدمون؛ لأن المتأخرين الذين تأثروا بالفلسفة والمنطق دخلت فيهم هذه الأمور؛ ولذلك لما نرجع إلى أئمة اللغة لا نجد عندهم أن الاستواء يأتي بمعنى الاستيلاء، وهم يذكرون شعرًا:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

يستدلون بأمور إذا أوَّلوا كلام الله ﷻ فتأويل كلام غيره من أهون ما يكون.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر: ١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ۞ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[غافر: ٣٦: ٣٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۞ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[الملك:١٦- ١٧].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

في هذه الآيات إثبات علو الله ﷻ، وإثبات علو الله ﷻ على خلقه معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، بل اتفقت الكلمة -كما يقول شيخ الإسلام وهذا نص كلامه-: «اتفقت الكلمة من المسلمين والكافرين أن الله ﷻ في السماء»، والأدلة الدالة على العلو هي أكثر من ألف كما ذكر الإمام بن القيم رَحِمَهُ اللهُ؛ ولذلك كان السلف مطبقين متفقين على تكفير من أنكر ذلك لأن إثبات العلو لله ﷻ هو معلوم بالاضطرار من الدين، فالله ﷻ هو العلي الأعلى، والذين يخالفون أهل السنة والجماعة في هذه الصفة هم ثلاثة فرق:

الفرقة الأولى: هم الجهمية أو معطلة الجهمية الذين يقولون: أن الله ﷻ لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينًا له ولا محايث له، فيصفونه بالوصفين المتقابلين، وهؤلاء هم معطلة الجهمية.

الفرقة الثانية: هم حلولية الجهمية، وهم يقولون: أن الله ﷻ بذاته في كل مكان.

الفرقة الثالثة: طائفة من أهل الكلام، يقولون: أن الله بذاته فوق العالم وهو بذاته في كل مكان.

وقد تجد شخصًا يقول-وذلك لأن هذه النظريات انتشرت بين الناس وقد خفي الحق على كثيرٍ من الناس-قد تجد بعض النّاس يجمعون بين أقوال هذه الطوائف الثلاث دون أن يشعروا بأنهم جمعوا الشر كله.

وإثبات العلو كما قلت: هو معلوم من الدين بالضرورة، وقد أفرد شيخ الإسلام لهذه المسألة مُجلدًا كاملاً من كتابه «درأ تعارض العقل والنقل»؛ لأن هذا الكتاب رد فيه شيخ الإسلام من وجوه كثيرة على من يرى التعارض بين العقل والنقل، بعد أن بيَّن الوجوه ذكر مثالاً واحدًا طبق فيه بطلان أصول المتكلمين وصحة أصول أهل السنة، فاختار العلو مثالاً لما أراد أن يطبقه، مجلد كامل وجزء من مجلد خصصه لبيان هذا الصفة.

وتراثُ شيخ الإسلام كما تعرفون قد -خُدِم والحمد لله- خدمة لا نعرف أحدًا خُدِم تراثه بهذا الشكل، بعد أن كانت كتبه تُدفن وتحرق خوفًا من المخالفين، وبعد أن كانت كتبه يروجها أحبابه بطرق مختلفة بأسماء مختلفة، ابن بالعز رَحِمَهُ اللَّهُ وهذا الذي كتب هذا الشرح العظيم، لم يسم شيخ الإسلام في موضع من كتابه، ولا سمى أيضًا تلميذه ابن القيم، وابن عروة الحنبلي الذي شرح «**مسند الإمام أحمد**»، أودع كثيرًا من كتب شيخ الإسلام في كتابه وذلك حِفاظًا على هذه الكتب؛ لأن من كانت عنده هذه الكتب كان يطارد، ولكن الحمد لله في هذا الوقت تُراث شيخ الإسلام خُدِم خدمة، نسأل الله أن يبارك في جهد كل من يخدم تراثه.

وما ذكره شيخ الإسلام في مسألة العلو بالذات في «درأ تعارض العقل والنقل» يحتاج إلى إفرادها في رسالة علمية أو رسالة يتوسع فيها الباحث ويُفرِد فيها جهد شيخ الإسلام في هذه؛ لأن كل كتابات أهل السنة حول صفة العلو لن تجد فيها مثل ما ذكره شيخ الإسلام في «درأ تعارض العقل والنقل»، لأنه لخَّص فيها تهافت أصول المتكلمين، وذكر نصوصهم، نصوص كبارهم الرازي، والآمدي، ذكر نصوصهم وبين تهافتُها.

ولذلك أتمنى أن يوفق الله عَزَّوَجَلَّ أحدًا يقوم بهذه الخدمة وغيرها مما يتعلق بتراث شيخ الإسلام.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: ٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة: ٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه: ٤٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦]. وَقَوْلِهِ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الآيات الكريمات إثباتُ معية الله ﷻ لخلقه، والمعية في كتاب الله ﷻ على وجهين: عامة وخاصة.

أما المعية العامة: فهي التي ذكرها الله سبحانه في مثل قوله: (﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾) وفي مثل قوله ﷻ: (﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾)، فهذه معية عامة لكل المتناجين، وكذلك الأولى لجميع الخلق، هذه المعية العامة.

أما المعية الخاصة: ففي مثل قوله ﷻ: (﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾)، وفي قوله سبحانه لموسى: (﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾)، وفي قوله سبحانه: (﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾)، وهي في قول النبي ﷺ وأبي بكر.

فهو مع موسى وهارون دون فرعون، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل، هذه هي المعية الخاصة،

والمعية الخاصة هي تتضمن تأييده ونصره.

أما المعية العامة ففيها مجرد علمه وقدرته.

أما المعيةُ الخاصة فتزيد عليها بتأييده ونصره، وأنه يجعل للمتقين مخرجًا ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، فهو سبحانه معهم بالنصر والتأييد والإرادة وهذه هي المعية الخاصة.

وهذه المعية لا تقتضي الاختلاط بالمخلوق، كما تلاحظون هنا ذكر شيخ الإسلام الآيات المتعلقة بالعلو، ثم أعقبها بذكر الآيات المتعلقة بالمعية، وسيرجع لبيان هذه المسألة وأنه لا تعارض بين علوه ﷻ على خلقه ومعيته.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾[النساء: ٨٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾[النساء: ١٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾[المائدة: ١١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾[الأنعام: ١١٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[النساء: ١٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾[البقرة: ٢٥٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الآيات إثبات كلامه ﷻ ،وإثبات صفة الكلام مما أجمعَ عليه السلف ووردت فيه من النصوص الشيء الكثير، والسلف يثبتون أن الله ﷻ لم يزل متكلمًا إذا شاء وكما شاء، وإنكار هذه الصفة وتحريفها هو في الحقيقة تكذيب للمرسلين؛ لأن المرسلين هم أخبروا الأمم بكلام الله ﷻ الذي أُنزل عليهم، وإنكار كلام الله ﷻ أو تحريف كلام الله ﷻ هو في الحقيقة تكذيب للمرسلين.

ومن أنكروا هذه الصفة هم يزعمون كما يزعمون في الصفات الأخرى أن إثباتها يستلزم التشبيه، وأن الله ﷻ ينزه عن التشبيه؛ فلذلك لا نثبت له صفة الكلام، المعتزلة والجهمية أنكروا صفة الكلام، أما الأشاعرة والماتريدية فقد اثبتوا صفة الكلام لله ﷻ ولكن أثبتوها صفة ذاتية بحتة، وصفة الكلام عند أهل السنة والجماعة ذاتية باعتبار وفعلية باعتبار.

- ذاتية: باعتبار أصل الكلام، فالله ﷻ متصف بصفة الكلام أزلاً وأبدًا.

- وفعلية: باعتبار آحادها، فالله ﷻ يكلم من شاء، بما شاء، متى شاء، وهذا معنى قولنا فعلية باعتبار آحادها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿نَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] . وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] .

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الآيات إثبات النداء لله ﷻ، وأخبر الله ﷻ في القرآن بندائه لعباده في أكثر من عشر آيات، والنداء لا يكون إلا صوتًا باتفاق أهل اللغة، بل لا يكون إلا صوتًا رفيعًا وبذلك يتميز النداء، وهذه الآيات تدل

أولاً: على إثبات النداء لله ﷻ.

ثانيًا: على صحة مذهب أهل السنة بإثبات الصفات الاختيارية؛ لأن النداء مثلاً نداء الله ﷻ لموسى كان في وقت محدد وفي ظرفٍ محدد، وهذا معنى كونه مُتعلقًا بمشيئته وقدرته، وهو أيضًا يدل على صحة مذهب أهل السنة على أن صفة الكلام ذاتية باعتبار وفعلية باعتبار، فمثلاً في قصة موسى إنما ناداه حين جاء، هل ناداه قبل أن يأتي؟ لا، ناداه في وقت معين، وأيضًا ندائه لآدم وحواء، ناداهما لما أكلا من الشجرة، وكذلك ندائه ﷻ في يوم القيامة سيكون في ذلك اليوم، وهذا كله يدل أولاً على إثبات النداء، وثانيًا على صحة مذهب أهل السنة لإثبات صفات الأفعال.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ﴾[التوبة: ٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ﴾[الفتح: ١٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام: ٩٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[الحشر: ٢١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل:١٠١-١٠٢-١٠٣].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الآيات الكريمات إثبات أن القرآن كلام الله ﷻ، وهذا في الظاهر لم يُخالف فيه أحد وخاصة مَنْ بعد المعتزلة، ولكن التفاريع التي يذكرونها تدلُّ على أن كثيرًا من المُتكلمين المتأخرين المُنتسبين إلى بعض الأئمة هم أيضًا مع المعتزلة في أن القرآن مخلوق أو أن القرآن ليس كلام الله ﷻ حقيقة.

نلاحظ أن شيخ الإسلام هنا ذكر طائفة من الآيات لإثبات صفة الكلام، ثم ذكر طائفة من الآيات لإثبات نداءه ﷻ، وهذه الآيات أيضًا تدل على اتصافه ﷻ بصفة الكلام؛ لأن النداء لا يكون إلا بصوت مسموع.

ثم ذكر طائفة من الآيات تدل على أن القرآن كلام الله ﷻ، وفي هذه الآيات ذكر سبحانه أن القرآن منزل منه سبحانه، والنزول في كتاب الله ﷻ جاء على ثلاثة أنواع:

نزول مقيد بأنه منه كما في هذه الآيات.

ونزول مقيد بأنه من السماء.

ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بذاك.

والنوع الأول هو المتعلق بموضوعنا، فالنزول المقيد بأنه منه لم يرد في القرآن إلا في القرآن، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤]، أيضًا ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢]، أيضًا ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١]، وهذا النوع هو الذي يخصنا في هذا الموضوع.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢: ٢٣] ، وَقَوْلِهِ: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣] ، وَقَوْلِهِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ، وَقَوْلِهِ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ، وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبَ الهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

كنا نتحدث عن الآيات التي تثبت أن القرآن كلام الله ﷻ، وبيَّنَّا أن النزول المقيد لأنه منه سبحانه لم يطلق في القرآن، لم يأتِ في القرآن إلا عن القرآن نفسه، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[الزمر:١]؛ ولذلك مقولة السلف المعروفة: (**أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، منه بدأ وإليه يعود**) أي: هو المتكلم به، وأيضًا قالوا: (**أن كلام الله ﷻ من الله ليس بظاهر منه**) أي: لم يخلقه في غيره، فيكون مبتدأ منزل من ذلك المخلوق، كما ذكره ويذكره المعتزلة، بل هو منزل من الله ﷻ كما أخبر به في هذه الآيات، ومن الله بدأ، لا من المخلوق الذي هو الشجرة، فهو الذي تكلم به لخلقه.

والآيات التي استمعنا إليها الآن هي تثبت الرؤية، أي: رؤية العباد لله ﷻ، سبق ذكر بعض الآيات لبيان أن الله ﷻ يُري عباده، وهذه هي الرؤية التي يتحدث عنها من يؤلف في العقيدة، الرؤية أي: رؤية العباد لله ﷻ.

(﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢: ٢٣] ، وَقَوْلِهِ: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣] ، وَقَوْلِهِ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]). وهو رؤية الله ﷻ.

ففي الآية الأولى : (﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾)، إضافة النظر إلى الوجه الذي هو محل الرؤية، وقد عديت بإلى التي هي صريحة في نظر العين، (﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾)، والرؤية يثبتها أيضًا أهل السنة والجماعة كما في هذه الآيات ويثبتها أيضًا متأخروا المتكلمين، وينكرها الجهمية والمعتزلة، وإثبات متأخري المتكلمين لم يسلم من بعض الانحرافات، إثباتهم لم يكن كإثبات أهل السنة والجماعة؛ لأن متأخرِ المتكلمين -الأشاعرة والماتريدية- ينكرون العلو، ومن ينكر العلو من الصعب أن يثبت الرؤية كما وردت في الكتاب والسنة؛ لأن رؤية المؤمنين لله ﷻ تكون والله ﷻ فوقهم وهم ينكرون علوه ﷻ، فلذلك يقولون: يرونه ولكن لا إلى جهة أو لا من جهة، لأنهم يقولون بنفي الجهوية، فتجدون عنوانًا عريضًا في كتبهم «نفي الجهوية»، أي: نفي أن الله ﷻ في جهة ما، لا علو ولا سفل ولا يمين ولا شمال.

فمن ينكر علو الله ﷻ يصعب عليه أن يثبت الرؤية كما يُثبت أهل السنة والجماعة، فلذلك هم يقولون: يُرى الله ﷻ لا في جهة، وقد تحيروا كثيرًا وآل أمر متأخريهم -متأخروا المتأخرين- وأقصد بهم من بعد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥) وشيخه الجويني المتوفى سنة (٤٧٨).

من خَلَفَ الغزالي في إمارة المتكلمين هو الشهرستاني وبعده الآمدي والرازي، والرازي توفي سنة (٦٠٦) هؤلاء المتأخرون ذكروا أن الرؤية التي نثبتها أن مفادها العلم، وأن رؤية المؤمنين لله ﷻ معناها التجلي الكامل أو الكشف الكامل الذي يحصل بالرؤية، فأنت الآن في هذه القاعة تعرف إذا كان القمر في الأفق أن تتصور القمر كيف هو، أليس كذلك؟ إذًا عندك علم بالقمر بعدما ترى القمر أمامك، هناك فرق بين هذا العلم الذي كان وأنت في القاعة وبين العلم الذي أنت عليه الآن وأنت تشاهده، أليس كذلك؟

يقولون: المراد بالرؤية أن كشفه لهم سيكون من الوضوح بحيث لو رُؤي أو علم بهذا القدر من

العلم، يعني: علمهم بربهم سيكون مثل العلم الذي يكون من خلال الرؤية، الرؤية التي يثبتها المتأخرون منهم، يقولون: أنه هو العلم، ولماذا لم تُثبت النصوص العلم وذكرت الرؤية؟ يرون الله ﷻ، لماذا ذكرت الرؤية؟

يقولون: لبيان أن الرؤية بها تنكشف حقيقة الشيء، الشيء الذي تراه ينكشف لك بأكمل وجه، رؤية المؤمنين لربهم معناها: أن علمهم سيكون مثل علم من يرى الشيء عيانًا، وليس معناها أنهم سيرونه؛ لأن الرؤية تستلزم أن تراه في جهة وهم ينكرون جهة العلو، فينكرون أن الله ﷻ عالٍ على عرشه.

إذًا الجهمية ينكرون الرؤية والمعتزلة ينكرون الرؤية، والأشاعرة والماتريدية يثبتون الرؤية ولكن إثباتهم لرؤية الله ﷻ لم يَسْلَمْ، لماذا؟ لانحرافهم في باب آخر، وهكذا تكون البدع بعضها يجر بعضًا، ولا يسلم إثبات الرؤية كما أُثبتت في النصوص إلا لأهل السنة؛ لأنهم يثبتون كل ما أثبته الله ﷻ لنفسه، وكل ما أثبته رسوله لربه ﷻ.

وهذا الباب في كتاب الله تعالى كثير من تدبر القرآن طالبًا للهدى، هذا شرط مهم، **(من تدبر القرآن طالبًا للهدى منه تبين له طريق الحق)** أما من يرى أن الهدى -وخاصة فيما يتعلق بصفات الله ﷻ وأسمائه-ليس طريقه الوحي وإنما طريقه العقل فلا يمكن أن يهتدي بالقرآن، هذه النماذج من الآيات التي أثبتت أسماء الله ﷻ وصفاته، وكما لاحظتم أن شيخ الإسلام لم يعلق ولا تعليقًا واحدًا أثناء ذكره لهذه الآيات، أليس كذلك؟ لم يعلق بتعليق، لا مختصر ولا مطول، بل ترك النصوص تنطق وتثبت وفيها التعليق كله، فمن ينازع أهل السنة فلينازع هذه الآيات، وهي بعض ما ورد في إثبات أسماء الله وصفاته.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ثُمَّ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تُفَسِّرُ القُرآنَ وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِالقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

إذًا السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه، هذا كله تأكيد لوظيفة السنة.

(وما وصف الرسول ﷺ به ربه ﷻ من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة)، لم يقل تلقاها كل من هب ودب؛ لأن المعتزلة حتى الأحاديث المتواترة لا تفيدهم العلم، بل التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول.

(وجب الإيمان بها كذلك)؛ إذًا الآيات الواردة في إثبات الأسماء والصفات هي من الكثرة بحيث أن ما ذكره هو بعضها، وهناك أحاديث كثيرة أيضًا تثبت هذه الأسماء والصفات ولكن للأسف انعكس الأمر عند المتكلمين، فتجد أن هذا الباب الواضح الطويل العريض قد انغلق دونهم بكامله أو بعضه، تجد أن بعضهم يشعر بضيق شديد لما يثبت، وحتى الصفات التي يثبتونها يتحرجون فيها تحرجًا لا يعلمه إلا من يتدبر في كلامهم؛ لأنهم يرون كما أشرت أن الإثبات إذا كثر ففيه خدش في أصل التوحيد.

إذًا لا إشكال في الكتاب ولا في السنة وإنما الإشكال في عقول أهل البدع.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ:«يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

نزول الله ﷻ إلى سماء الدنيا وردت فيه أحاديث كثيرة، وهذا الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام هو متفق عليه، واتفق سلف الأمة وأئمتها كلهم اتفقوا على إثبات نزول الله ﷻ، والنزول من الصفات الاختيارية والفعلية التي تتعلق بمشيئته سبحانه، ومعنى ذلك أنه لا يُثبته جميع المتكلمين، ومع نزوله

سبحانه إلى سماء الدنيا إلا أنه لا يزال فوق العرش لا يكون تحت المخلوقات ولا تكون المخلوقات محيطة به قط بل هو العلي الأعلى، العلي في دنوه والقريب في علوه، وهذه الصفة أيضًا تأولها المتكلمون بأنواع من التحريفات ولكن أهل السنة يثبتونها، والأحاديث فيها بلغت حد التواتر عند بعض أهل العلم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ» الحَدِيْثُ. وَقَوْلِهِ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ يَدْخُلانِ الجَنَّةَ». وَقَوْلِهِ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِيْنَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ، يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الأحاديث إثبات فرحه سبحانه وإثبات الضحك والتعجب، والفرح كما في الحديث الأول يدل على محبة الله ﷻ للتوبة، وهذا الحديث ورد في الصحيحين من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وأنس وغيرهم، وهو أيضًا من الصفات الاختيارية، أما الضحك فأحاديثه متواترة كما ذكره شيخ الإسلام نفسه، ولا يلزم من إثبات الضحك له سبحانه شيء من النقص فإن الضحك في موضعه المناسب مدح وكمال.

وأما التعجب فجاء في القرآن الكريم، في قراءة الضم: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢]، فيها إثبات التعجب لله ﷻ، وجاء في أحاديث كثيرة، ولا يلزم من إثباته -كلما أقول: لا يلزم لا يلزم، يعني أصلاً لا يلزم أن أقول هذا الكلام؛ لأن الله ﷻ إذا اثبت شيء هل يلزم منه ما فيه تنقص له؟ لكن هذا استطراد وبيان للحق الذي عليه أهل السنة والجماعة وليس فيه دفاع عن النصوص -معاذ الله- النصوص هي النصوص لابد أن نؤمن بها، إما الإيمان وإما عدم الإيمان بالنصوص، فأنا لما أقول: لا يلزم لا يلزم، معناه: يعني مزيد شرح وبيان -أي لازم باطل؛ لأن الذي وصف به سبحانه من التعجب ليس مقرونًا بجهل، بل يتعجب لخروجه عن نظائره تعظيمًا له، والله ﷻ يعظم ما هو عظيم، إما لعظم سببه أو لعظمه في ذاته، وهذه الصفات كلها لم يثبتها المتكلمون لتوهم النقص فيها، ولعدم إثباتهم للصفات الاختيارية

عمومًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، [وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ] ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذا الحديث إثبات القدم لله ﷻ «حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ»، ذكر الرازي على ما أظن في (أساس التقديس) أن المراد بالرجل الناس الكثيرون، يضع رب العزة فيها كثيرًا من الناس رجله، هل يستقيم هذا التأويل على أي ميزان؟ «رجله» أي: كثيرًا من الناس.

أيضًا في رواية: «يضع عَلَيْهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ» متفق عليه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: «يَقُولُ اللهُ ﷻ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَلامُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ:لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ،فَيُنَادِي بِصَوتٍ:إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ». وَقَوْلِهِ: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلا تَرْجُمَانٌ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذين الحديثين إثبات أن الله ﷻ يتكلم وكلامه بصوت، وهذه المسألة أيضًا من المسائل المختلف فيها أو من المسائل التي ضل فيها المتكلمون والذين أثبتوا صفة الكلام لله ﷻ، فيثبتون كلامًا ليس بصوت وليس بحرف.

يقول النبي ﷺ («يَقُولُ اللهُ ﷻ») فيه إثبات صفة الكلام.

(«يَا آدَمُ فَيَقُولُ:لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ،فَيُنَادِي بِصَوتٍ») الضمير يرجع إلى الله.

هنا بعض رواة البخاري ذكروا أن الرواية («فَيُنَادَى»)، ولكن الصحيح (فَيُنَادِي)، («فَيُنَادِي بِصَوتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ») إذًا الحديث نصٌ على أن كلام الله ﷻ بصوت.

«مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلا تَرْجُمَانٌ»، وحتى الكفار يكلمهم الله ﷻ ولكن يكون كلامه تكليم التوبيخ والتقرير والتبكيت وليس تكليم التقريب والرحمة.

وبعض أهل السنة أنكروا تكليم الكفار جملة، ولكن الصحيح والله أعلم أن الله ﷻ يكلمهم تكليم التقرير والتبكيت والتوبيخ والله أعلم.

المهم في هذين الحديثين إثبات كلام الله ﷻ وأنه بصوت.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ فِي رُقْيَةِ المَرِيضِ: «رَبَّنَا اللهَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجِعِ؛ فَيَبْرَأَ»، وَقَوْلِهِ: «أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، وَقَوْلِهِ: «وَالعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»، وَقَوْلِهِ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

قَالَ الشَّارِحُ -وَفَّقَهُ اللهُ-:

في هذه الأحاديث إثبات علو الله ﷻ، وفوقيته على جميع الخلق، والأحاديث في إثبات العلو متواترة وسبق ذكر الآيات، وأيضًا سيذكر شيخ الإسلام بعض الأحاديث فيما سيأتي، وهنا في حديث الجارية قول النبي ﷺ: «أَيْنَ اللهُ»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ»، فاختبرها في الألوهية والرسالة، كأنه اختبرها في كلمة الشهادة: «**لا إله إلا الله محمدًا رسول الله**»، وهذا هو الاختبار النبوي وإن رغم أنف المتكلمين الذين يقولون: أن السؤال بأين لا يجوز بل هو كفر عندهم، لأن فيه إثبات الأينية لله ﷻ، حتى مصطلحاتهم فيها كثير من التراخي؛ هم يقولون: إثبات الأينية كفر، ويعني:

مما لا أزال استغرب منه أن بعض الأئمة -أئمة الشافعية المرموقين-ما أذكر اسمه، وهو إمام حقيقة له سمعته في الفقه وكتابه في الأصول أيضًا كتاب فيه كثير من الخير، ذكر في كتاب من كتبه، يقول: «لو سألتم أين الله؟ فيقول: **أول كفرك أنك استجزت أن تسأل بأين الله**» يعني هذا لا استغربه من المتكلمين لأنهم تعودوا على هذه اللغة، صار عندهم هو من بديهيات الإيمان؛ فلذلك لما كتب شيخ الإسلام هذه الرسالة صار شيخ الإسلام هو المتهم وهو الذي يناظر وهو الذي يسحب وهو الذي يسجن؛ لأنه كتب هذه الرسالة، أما الذي يجر إلى الأمة ويلات الفلسفة وخرافات اليونان فهذه هينة جدًا عندهم.

فمما يدل على خطورة هؤلاء المتكلمين وأن أفكارهم قد تسربت إلى كثير من أهل العلم في الأمة، وأنهم لا يشعرون أن الكفر الذي ينسبه إلى مخالفه أول ما يُنسب يُنسَب إلى النبي ﷺ، يعني «أين الله» من الذي سأل؟ هو النبي ﷺ، وهذا الحديث هو في صحيح مسلم حديث الجارية؛ فلذلك قدماء المتكلمين اكتفوا بتأويله ضمن مئات النصوص التي تؤول، ما أدري إذا كنتم ضيعتم شيئًا من وقتكم في قراءة كتب المتكلمين، يعني هم يعنونون في موضوع الصفات، يعنون للتنزيه، تنزيه الله ﷻ.

في تنزيه الله ﷻ يثبتون أن الله ﷻ لا شبيه له، وا وا.. إلى آخره، ومن مقتضيات نفي التشبيه له أن ننفي كل ما فيه تنقص لله ﷻ، ثم يذكرون بعض الآيات المتعلقة بإثبات الأسماء والصفات وعدد من الأحاديث، ويذكرون كلامًا مجملاً في رد هذه الآيات ويعتبرونه كافيًا في نفي جميع نصوص الصفات.

أولاً: الكلام المجمل أنه حصل تعارض بين العقل والنقل، ومقتضى العقل هو تنزيه الله ﷻ، وتنزيه الله ﷻ لا يتم إلا بالتأويل أو بالتفويض، فإما أن نؤول فنكون قد جمعنا بين العقل والنقل، وإما أن نفوض ونقول: هذه الآيات لا يعلمها إلا الله ﷻ فردها، هذا الكلام المجمل.

ثم بعد ذلك الأحاديث الصريحة والآيات الأخرى التي لم تُذكر في ذلك الموضع قسها عليها؛ لأنه أعطاك قاعدة صلبة تنطلق منها، فلذلك هو ليس بحاجة أن يقف عند كل نص هذا الذي أريد أن أقوله، وقد يستغرب بعض الناس ويقول: طيب لو أوَّل هناك، هنا ماذا يقول؟ لا، هو ليس بحاجة أصلاً أن يقف مع كل آية أو مع كل حديث؛ فلذلك الجويني لما جاء إلى هذا الموضوع ذكر أن هناك أحاديث توهم

التشبيه، وأنه سيذكر تأويلها ليس لأنه يجب عليه، وإنما من باب التفضل على المخالف، لا أذكر لفظه ولكن يذكر أنه من باب التفضل على المخالف يذكر تأويلها وإلا ليس مُلزمًا أن يذكر تأويلها أصلاً.

ولذلك لا يستوقفكم كل نص، حتى تقولوا: هنا ماذا تأويلهم، وهنا ماذا تأويلهم؟ لا، عندهم كلام مجمل وقاعدة مضطردة، إن تعارض العقل والنقل وقدمنا النقل ففيه قدح للعقل والنقل معًا؛ فلذلك حفاظًا على النقل نقدم العقل.

وهذا الحديث من الأحاديث المُحرجة بالنسبة لهم، وقُدمائهم لم يستطيعوا الطعن فيه سندًا، ولكن لما وصل دورهم إلى الكوثري بدأ يطعن فيه سندًا، وذكر أن فيه تسع علل وليس علة واحدة أو علتين أو ثلاث ثم سردها.

وبعضهم قالوا: هذا الحديث شأنه مثل شأن بقية الأحاديث التي تؤول بالقواعد العامة عندهم، ولكن هناك حديث آخر فيه رد على هذا الحديث، والآمدي ذكر في كتابه «**أبكار الأفكار**» حديثًا غريبًا قال: يقول النبي ﷺ: «الذي أيَّنَ الأين لا يقال له أين».

والله المستعان يعني الواحد لما يذكر تأويلاتهم يستغرب، أيضًا يتعب نفسيًا؛ لأنهم في النهاية ينتسبون إلى الإسلام وتستغرب كيف أن الشيطان دخل واستحكم في أهوائهم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: «أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ».حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَقَوْلِهِ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ؛ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ -وَفَّقَهُ اللهُ-:

الحديث الأول فيه إثبات المعية وبحث المعية سيأتي بيانه.

الحديث الذي بعده فيه بيان القرب من عبده المصلي («إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ؛ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ»).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

فيه إثبات الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ! أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

في هذا الحديث أيضًا إثبات القرب من العبد إذا دعاه، ففي الحديث الأول إثبات معية الله ﷻ لعباده وهي المعية العامة، وفي هذا الحديث إثبات قربه من عبده المصلي مع علوه سبحانه، وفي حديث: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ» فيه إثبات أوليته وآخريته وظاهريته وباطنيته، وفيه بيان أنه سبحانه قد سبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، وأحاط بكل شيء ببطونه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلاَّ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا»

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

سبق ذكر موقف المتكلمين في الرؤية.

(«إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ») هنا تشبيه الرؤية بالرؤية، كما ترون القمر ليلة البدر، أي: ستكون رؤيتكم في الوضوح مثل رؤيتكم للقمر ليلة البدر، وهذه الرؤية أوضح ما تكون.

(«لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ») أي: لا يحتاج بعضكم إلى أن ينضم إلى بعض لأجل التزاحم، فلا يلحق أحدًا ضررًا في رؤيته سبحانه.

(«فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلاَّ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ») صلاة الفجر، («وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا») صلاة العصر، («فَافْعَلُوا») وهذا الحديث متفق عليه، وهو متواتر عند بعض أهل العلم.

(«لاَ تُضَامُونَ»)، روى بعضهم بالتخفيف أي: لا يلحقكم ضيم في رؤيته كما يلحق الناس عند رؤية الشيء الحسن يتزاحمون، وروي بالتشديد «لاَ تُضَامُّونَ» أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض كما يتضام الناس عند رؤية الشيء الخفي كالهلال.

وهذا كله لبيان أن رؤيته سبحانه ستكون في غاية التجلي والظهور، بحيث لا يلحق الرائي ضير ولا ضيم كما يلحقه عند رؤية الشيء الخفي والبعيد والمحجوب ونحو ذلك.

وهنا في هذا التشبيه هم يقولون: أن -المتأخرون طبعًا- رؤية الله ﷻ معناها العلم، ومعناها بيان الفرق بين الرؤية عيانًا وبين ما يكون مرتسما في علمك، يعني فيه بيان الفرق بين العلم المجرد وبين العلم الذي يكون أثناء المشاهدة، العلم أثناء المشاهدة يكون فيه من الظهور والتجلي أكثر من العلم الذي لا يكون أثناء المشاهدة، كعلمي بالقمر الآن، وعلمي بالقمر لما أشاهده بينهما فرق، يقولون: المراد في الحديث بيان هذا الفرق.

وكل هذا لأنهم لا يثبتون علو الله ﷻ فلا يمكنهم أن يجمعوا بين نفي العلو وبين إثبات الرؤية.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رِسُولُ اللهِ ﷺ عَن رَّبِهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ؛ بَلْ هُمُ الوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوَسَطُ فِي الأُمَمِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

(إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رِسُولُ اللهِ ﷺ عَن رَّبِهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا تَعْطِيلٍ) يشير شيخ الإسلام إلى أن ما ذكره ما هو إلا نماذج من الآيات والأحاديث التي فيها إثبات أسماء الله وصفاته.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الجَهْمِيَّةِ، وَبَينَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ المُشَبِّهَةِ؛ وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ القَدَرِيَّةِ وَالجَبْرِيَّةِ، وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ المُرْجِئَةِ وبَينَ الوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ المُرْجِئَةِ وَالجَهْمِيَّةِ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّوَافِضِ وَ بَيْنَ الخَوَارِجِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هنا بين شيخ الإسلام موضوعًا مهمًا وهو وسطية أهل السنة في هذه الأبواب التي ذكرها، فهم وسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط بين الأمم، والوسطية التي يتحدث عنها شيخ الإسلام هنا هي الطريق الحق الذي ضل عنه البقية يمينًا وشمالاً، وليست الوسطية أن ننظر إلى مواقف الفرق المتقابلة ونختط لنا طريقًا وسطًا، لا، ليس إلينا اختيار هذه الأمور، إنما هو الحق الذي انحرف عنه الناس يمينًا وشمالاً وبقي أهل السنة على الحق الواضح فهذه هي الوسطية.

بل هم وسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط بين الأمم، لماذا بقوا على الحق الواضح؟ طبعًا **أولاً**: بفضل الله ﷻ.

ثانيًا: بالنظر إلى جميع النصوص.

فالذين ضلوا في هذه الأبواب لأن اعتنائهم بالنصوص ليس كما ينبغي، فلذلك لما نظروا إلى مجموعة من النصوص في الوعيد قالوا: أن هذه هي الأصول وبقية النصوص تؤوَّل لأجلها، والذين نظروا في النصوص الواردة في الطرف الأخر ظنوا أن هذا الجانب هو الأصل ولأجله تؤوَّل بقية النصوص، فكذلك في بقية الأبواب لأن اعتنائهم بالسنة أو النصوص عمومًا ليس كما ينبغي، ولذلك لم يستطيعوا أن يجمعوا بين النصوص، فاختاروا طرفًا من الصواب وجانبوا طرفًا من الصواب، أما أهل السنة فلأنهم يعتنون بالنصوص ويفسرون النصوص بالنصوص وهمهم في النصوص وهم يدورون حول النصوص، فجمعوا بين النصوص وبقوا على الحق الواضح.

(فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سبحانه بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الجَهْمِيَّةِ، وَبَينَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ المُشَبِّهَةِ)، والجهمية يشمل جميع المعطلة، وهم أصناف كما ذكرهم شيخ الإسلام:

الصنف الأول: هم الجهمية الأولون الذين ينكرون الأسماء والصفات.

ويليهم الصنف الثاني: المعتزلة الذين ينكرون الصفات ويثبتون الأسماء.

ويليهم الصنف الثالث: الأشاعرة والماتريدية الذين يثبتون بعض الصفات وينكرون بعض الصفات.

وهؤلاء كلهم يطلق عليهم الجهمية في باب الصفات، لأن إنكار الصفات هذا هو التجهم، وبه اشتهر الجهم؛ فلذلك حتى الذين يخالفونه في الأصول الأخرى يطلق عليهم الجهمية في باب الصفات.

في باب الصفات هم وسط بين أهل التعطيل يعني أهل التعطيل كما ذكرت أصناف:

- المعطلة الأولون الذين يعطلون الأسماء والصفات.
- والذين يعطلون الصفات فقط.

- والذين يعطلون بعض الصفات.

كلهم يشملهم هذا، هم وسط بين أهل التعطيل وأهل التمثيل المشبهة، فيثبتون أسماء الله وصفاته من غير تكييف ولا تمثيل، فيتجنبون طريقة المشبهة ويتجنبون طريقة المعطلة.

(وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ القَدَرِيَّةِ وَالجَبْرِيَّةِ، وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ المُرْجِئَةِ وبَينَ الوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ).

الجبرية الذين ينفون حكمة الله ﷻ ورحمته وعدله.

والوعيدية من القدرية الذين يغلبون جانب الوعد.

فيؤمن أهل السنة: بأن الله على كل شيء قدير، فهو قدير بأن يهدي العباد ويقلب قلوبهم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يعجز عن إنفاذ مراده، هو خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات، ويؤمنون أيضًا مع ذلك أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل وأنه مختار، ولا يسمونه مجبورًا؛ لأن المجبور هو الذي يُكره على خلاف اختياره والله سبحانه جعل العبد مختارًا لما يريد.

وهذا الباب ينضبط لنا إذا فرقنا بين الخلق والفعل، وعرفنا أن الخلق لله ﷻ والفعل للعبد، كما الخلاف في أفعال العباد، أفعال العباد تنسب إلى الله خلقًا وإلى العباد فعلاً، فهي أفعالهم تنسب إليهم فعلاً وإلى الله ﷻ خلقًا.

أما الجبرية: فرأوا أن أفعال الإنسان تنسب إلى الإنسان مجازًا وليست حقيقة، فهو كالريش في مهب الريح، ليس له في أفعاله أي اختيار،

أما القدرية وهم المعتزلة: فيرون أن أفعال العباد هي من خلقهم وليس من خلق الله ﷻ؛ لأنهم قالوا: إذا قلنا إن أفعال العباد هي من خلق الله ﷻ فلماذا يحاسبون؟

ونحن نقول: هم يحاسبون على أفعالهم، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، فالعبد يستطيع أن يتجه إلى المسجد فيصلي ويستطيع أن يتجه إلى مكان آخر فيعصي أليس كذلك؟ وهو يختار المسجد

باختياره ويختار المكان الآخر باختياره؛ إذًا العبد خلق له سبحانه مشيئة واختيار، وعلى أساس المشيئة والاختيار يُحاسب، والمخالفون إما جعلوه خالقًا لتبرير حسابه؛ حتى يقال إن حسابه على أساس من العدل، أو جعلوه خشبًا لا يستطيع من أمره شيء، وأهل السنة نسبوا الخلق لله ﷻ ونسبوا الفعل للعبد.

(وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ المُرْجِئَةِ وبَينَ الوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ).

الوعيدية من القدرية هم المعتزلة، (بَيْنَ المُرْجِئَةِ وبَينَ الوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ) يشمل الخوارج والمعتزلة؛ لأن الخوارج هم يرون في مرتكبي الكبائر بأنه كافر، خارج من دائرة الإسلام، والمعتزلة يعتبرون خوارج في مرتبة تلي الخوارج، والاختلاف بينهم في الألفاظ أما في النتيجة فليس بينهم خلاف.

ومرتكب الكبائر عند أهل السنة والجماعة مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته وكبيرته، لماذا مؤمن بإيمانه؟ لأنه لم يخرج من الإيمان وهناك نصوص كثيرة تُبَيِّنُ هذا، فاسق بكبيرته؛ لأن كبيرته ومعصيته تلحقه، أما الآخرون الوعيدية لما نظروا إلى النصوص بعضهم انحرفوا وانحصروا في جانب من النصوص وبعضهم انحصر في جانب آخر من النصوص، ولم يستطيعوا الجمع بين النصوص؛ فبعضهم كفروه وهم الوعيدية، فالخوارج كفروه ورأوا أنه خارج دائرة الإسلام، والمعتزلة قالوا: هو في المنزلة بين المنزلتين في الدنيا، وكافر مخلد في الآخرة؛ إذًا ليس بينهم خلاف فيما يتعلق في الآخرة، بينهم خلاف في معاملته في الدنيا، هو في المنزلة بين المنزلتين في الدنيا خرج من الإسلام ولم يدخل الكفر؛ إذًا هو في منزلة بين المنزلتين.

أما المُرجئة فرأوا لما رأوا النصوص التي تثبت الإيمان للعاصي رأوا أن المعصية لا تؤثر في إيمان الرجل، فقالوا: مرتكب الكبائر مؤمن كامل الإيمان؛ ولذلك تجد بعضهم يقول: إيماني كإيمان جبريل، وأنه ليس هناك فرق بين إيمان أفجر الفجار وإيمان أتقى الأتقياء، وأهل السنة وسط بين الفريقين جمعوا بين نصوص الوعيد ونصوص الوعد.

(وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ المُرْجِئَةِ وَالجَهْمِيَّةِ).

هذه المسألة تابعة للمسألة السابقة، أسماء الدين هي مثل: (**مؤمن ومسلم وكافر وفاسق**)، فأهل

السنة وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار وبالتالي يسمونهم كفاراً، وبين المرجئة الذين يقولون: إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء فلا يفرقون، فيؤمن أهل السنة بأن فساق المسلمين معهم أصل الإيمان وبعض الإيمان وليس معهم جميع الإيمان، ليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة؛ فلذلك هو في مشيئة الله ﷻ، أما أولئك فبعضهم أخرجوه من دائرة الإيمان فسموه كافراً، وبعضهم قالوا: معصيته لا تؤثر فيه فهو مؤمن كامل الإيمان، وهذا يتعلق بالاصطلاح والأسماء.

(وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّوَافِضِ وبَيْنَ الخَوَارِجِ).

الخوارج الذين كفروا بعض الصحابة، والرافضة الذين ألَّهوا بعض الصحابة وتبرؤوا من بعض الصحابة، وأهل السنة وسط بين الغالية الذي يغالون في علي رضي الله عنه ويؤلهه بعضهم ويفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهم وعلى عثمان رضي الله عنه، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما أو دون الثلاثة، وأن الصحابة ظلموه وهم ظلمة وفساق، وبعضهم لا يستحي ويقول: هم كفار.

وأهل السنة والجماعة وسط بين الفريقين يوالون جميع الصحابة من حيث العموم، ويرون لآل البيت منزلتهم:

أولاً: لإيمانهم.

ثانيًا: لقربهم من النبي ﷺ .

فيرون لهم حقهم، وفي عموم الصحابة هم بين الرافضة والخوارج، وهذه نماذج من وسطية أهل السنة في باب الاعتقاد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ؛ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: ٤]، وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لاَ تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الخَلْقَ، بَلِ القَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، ثُمَ هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ المُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

بعد أن ذكر شيخ الإسلام عددًا من الآيات الكريمات والأحاديث النبوية في إثبات أسماء الله سبحانه وصفاته، بيَّن وسطية أهل السنة في أبواب الاعتقاد عمومًا، وليبيِّن أن تميزهم في هذا الباب -باب الأسماء والصفات-ليس مقتصرًا عليه، بل هذا شأنهم في جميع أبواب الاعتقاد؛ ولذلك كان حديثه عن وسطية أهل السنة مقتضبًا ومختصرًا جدًا، وإنما أراد به التذكير بمزية منهج أهل السنة في أبواب الاعتقاد عمومًا.

ثم رجع ليذكر ببعض الإشكالات التي يثيرها بعض أهل البدع حول ما ذكره من بعض الموضوعات، ومنها: الجمع بين العلو والمعية، والجمع بين العلو والقرب من العبد، فقال:

(وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ)، هذه البدايات في أكثر فقرات الكتاب، وهذا كله تذكير بأصل الموضوع وهو الإيمان بالله، وليس موضوع جدليات أو كلاميات وإنما هو موضوع الإيمان بالله، فلازلنا في ركن الإيمان بالله سبحانه، وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله:

- (الإيمان بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ)، هذا أولاً.

- (وَتَوَاتَرَ عَن رَّسُولِهِ ﷺ) ثانيًا.
- (وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ) ثالثًا.

ذكر ثلاثة أنواع من الأدلة: أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة.

(مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ)، وهذا هو العلو وأشار إلى بعض أدلته، عدد من الآيات، وأحاديث متواترة، وإجماع سلف الأمة.

(وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ)-مع علوه-(أَيْنَمَا كَانُوا)، بمعنى أنه يعلم ما هم عاملون.

(كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾) هذا بيان العلو، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ . ذكر علوه سبحانه، ثم استوى على العرش، ثم ذكر علمه الشامل، ثم ذكر مع ذلك معيته مع خلقه وهذه هي المعية العامة، فجمع بين العلو والمعية، ثم ذكر شيخ الإسلام أنه لا تناقض بين علوه سبحانه وفي نفس الوقت المعية العامة قال:

(وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ)؛ أهل البدع يقولون: أنتم تقعون في تناقض، من ناحية تثبتون علوه سبحانه ومن ناحية تثبتون معيته مع خلقه وهذا عين التناقض، كيف يكون عاليًا على عرشه بذاته، ويكون أيضًا مع خلقه؟

يُبيِّن شيخ الإسلام أنهم يسيئون الفهم إن كانوا مخطئين أو يتعمدون ذلك، من أنه (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لاَ تُوجِبُهُ اللُّغَةُ)، أولاً.

أولاً: أن اللغة لا توجب الاختلاط؛ لأن المعية -كلمة «مع» في اللغة إذا أطلقت ليس ظاهرها إلا المقارنة المطلقة، المعية مقتضاها في اللغة المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة، فإطلاق المعية في اللغة لا يقتضي إلا المقارنة المطلقة، أما ظنكم أنه يقتضي المماسة أو محاذاة عن يمين وعن شمال فهذا ليس من موجبات اللغة وإنما هذا من عندكم.

إذًا **أولاً**: (هَذَا لاَ تُوجِبُهُ اللُّغَةُ)، كلمة «مع» أو «المعية» في اللغة تدل على المصاحبة والموافقة والاقتران، وليس من موجباتها دائمًا الدلالة على المحاذاة أو الدلالة على المماسة.

إذًا هو لا يدل على أن الأول مختلط بالثاني كما في قوله سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح:٢٩]، فالذين معه بالنصرة والتأييد بالإيمان، ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٦]، وقد يكون أحدهم أبعد عن الثاني، ﴿اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ [الأنفال:٧٥]، كل هذا يدل على أن لفظة «مع» إذا استعملت فلا توجب المماسة أو المحاذاة، فكما استمعنا إلى هذه الآيات، فإذا كانت لفظة «مع» إذا استعملت في المخلوق لا تدل على أن يكون المخلوق مع المخلوق مختلطًا، فأن لا تدل على ذلك في حق الخالق بطريق الأولى.

ثانيًا: (**وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ**)، أجمعوا على أن الله ﷻ بائن من مخلوقاته، هذا الوجه الثاني، أجمع سلف الأمة على أن الله ﷻ بائن من مخلوقاته.

ثالثًا: (وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الخَلْقَ)، فطرهم على أن الله ﷻ فوق العالم.

رابعًا: (**بَلِ القَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، ثُمَ هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ المُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ**)، وهذا تمثيل لمخلوق من أصغر مخلوقات الله ﷻ، يقولون: لا زلنا نسير والقمر معنا، فهل هذا يقتضي أن القمر كان يسير معهم مختلطًا بهم؟

إذا كان هذا في مخلوق من أصغر مخلوقات الله ﷻ فكيف تكون المعية موجبة للماسة والاختلاط والمحاذاة في حق الله ﷻ؟

إذًا ذكر شيخ الإسلام أربعة وجوه:

١- لا توجبه اللغة.

٢- خلاف الإجماع.

٣- خلاف ما عليه فطر الناس.

٤- في الأخير تمثيل بالقمر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ إِلَيْهِم، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن مَّعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَكُلُّ هَذَا الْكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ-مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا-حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لاَ يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ؛ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

هنا بين شيخ الإسلام مقتضى معية الله العامة، ما هو مقتضى معية الله العامة؟

(وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ إِلَيْهِم، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن مَّعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ)، ثم ذكر: (وَكُلُّ هَذَا الْكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ-مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا-حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لاَ يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ)، كل ذلك حق ليس شيء من ذلك مجازًا، هو فوق العرش حقيقة، وهو معنا حقيقة، وقد بين أن المعية لا توجب الاختلاط والمماسة.

(وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ)، هنا يشير شيخ الإسلام إلى بعض شبهاتهم، نحن نقول: أن الله ﷻ فوق العرش وهو معنا حقيقة، ولكن لابد أن نفهم معنى المعية كما ذكر، ثم يشير هنا إلى بعض شبهاتهم.

(وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ) -أي: ترفعه (وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ)، لابد أن نعرف أن كلمة (السماء) تدل على مطلق العلو والارتفاع، و(«في» هنا بمعنى فوق، «في السماء» معناه: أن الله ﷻ على السماء، وليس معناه أن السماء تقله أو تظله، وهذا الوهم وهو توهم أن السماء تقله أو تظله باطل بإجماع أهل العلم والإيمان.

(فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، إذا كان سعة كرسيه السماوات والأرض.

(وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ؛ إلاَّ بِإِذْنِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ)، إذا كان كذلك فكيف تحيط به السماوات أو كيف تقله؟

وعدم صيانة النصوص عن الظنون الكاذبة هذا أيضًا مصدر كثير من البدع، فالواجب في تلقي النصوص أنك تعلم:

أولاً: أن هذا كلام رب العالمين.

ثانيًا: وتتيقن أنه كلام رب العالمين.

ثالثًا: كلام رب العالمين لا تتلقاه إلا كما يليق برب العالمين، فلا تسحب الظنون التي تَرِدُ على كلام الخلق على كلام رب العالمين، وتُكثِر من الاحتمالات، بل وتزيد في كلام رب العالمين كثيرًا من الاحتمالات التي لا تذكر في كلام الخلق، فهذا كله من عدم مراعاة حرمة كلام رب العالمين.

إذًا قوله سبحانه: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ معناه: أنه فوق السماء؛ لأن (في) بمعنى فوق، يقول سبحانه: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ﴾ [التوبة:٢] معناه: فوقها، أيضًا لفظ (**السماء**) كما قلت في اللغة والقرآن اسم لكل ما علا فهو اسم جنس للعالي.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقد دَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلقِهِ، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦]، وَقَالَ النَبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِّن عُنقِ رَاحِلَتِهِ»، وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لاَ يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

ثم ذكر الجمع بين علوه سبحانه وقربه وإجابته، فقال: (وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ)، دخل في الإيمان بالله ﷻ، (الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلقِهِ، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وَقَالَ النَبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِّن عُنقِ رَاحِلَتِهِ». وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لاَ يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ)؛ ثم لخَّص الموضوع بعبارةٍ وجيزة مركزة: (فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ)، وكل ذلك حقيقة لا مجازًا.

ولفظ القرب المضاف إلى الله سبحانه أحيانًا ذكر مفردًا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وفي الحديث «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِّن عُنقِ رَاحِلَتِهِ»، وتارة بصيغة الجمع كما في قوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

والقرب الذي وصف الله به نفسه هنا خاص لا عام، ولم يستعمل في القرآن والسنة قرب الله ﷻ إلا خاصًا، فليس في الكتاب والسنة وصف الله ﷻ بالقرب من كل شيء، أصلاً هذا لا يوجد في الكتاب والسنة، بل قربه الذي في القرآن خاص لا عام، (﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾) ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ فيه إشارة إلى سبب مهم من أسباب إجابة الدعاء: وهو أن يخلص في الدعاء (﴿إِذَا دَعَانِ﴾)، أما إذا أشرك في الدعاء، دعاه ودعا غيره فهذا قد أحبط دعائه وجعله لا يستجاب؛

ولذلك أشير هنا إلى أهم سبب من أسباب إجابة الدعاء.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَمِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا القُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لاَ كَلامُ غَيْرِهِ، وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْهُ، بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الكَلامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ مُبْتَدِئًا، لاَ إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هنا شيء من التقديم والتأخير يبدو في النسخ، **على كل حال** أنا أقرأ حسب ما هو عندي هنا، وما قرأه أخونا كله موجود ولكن بتقديم وتأخير.

بدأ شيخ الإسلام هنا بعرض مسألة القرآن، وهذه المسألة متفرعة عن مسألة صفة الكلام.

(وَمِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ)، زاد هنا (الإيمان بالكتب)، لماذا؟ لأن الإيمان بكلام الله سبحانه داخل في الإيمان برسالة الله تعالى إلى عباده، وأصل الإيمان الإيمان بما أنزله، فالذي لا يؤمن بصفة الكلام لا يمكنه الإيمان بالله ﷻ؛ لذلك من الإيمان بالله وكتبه:

في هذه الرسالة كما لاحظنا لا يشير شيخ الإسلام إلى المخالفين؛ لأن الرسالة موضوعة لبيان عقيدة أهل السنة والجماعة، ولكن لو أردنا أن نتعمق في كلامه: ففي كل جملة منه إشارة إلى المخالفين، في كل جملة منه إشارة إلى بعض بدع المخالفين.

فإن صفة الكلام كما تعرفون كان الخلاف حولها طويلاً وعريضًا، بل من المسائل التي كان الخلاف فيها مبكرًا صفة الكلام، وكان الناس في صفة الكلام على فريقين:

- **أهل السنة**: الذين يثبتون هذه الصفة، يثبتوها أزلية من حيث الأصل، وفعلية من حيث الآحاد، وهذا مذهب أهل السنة.

- **المعتزلة**: الذين ينفون هذه الصفة ويرون أن القرآن مخلوق، لماذا؟

لأنه ليس من صفة الله ﷻ، الله ﷻ لا يتصف بصفة اسمها صفة الكلام بل هم ينفون جميع الصفات، المعتزلة يثبتون الأسماء وينفون الصفات، وموقفهم من القرآن مُتفرع عن موقفهم من صفة الكلام؛ إذًا الخلاف في كون القرآن مخلوقًا أو غير مخلوق تابع للخلاف في صفة الكلام، فمن أثبت صفة الكلام فإنه يثبت أنه ليس مخلوق وأنه من صفات الله ﷻ، ومن نفى صفة الكلام فلا يمكنه إلا أن ينفي كونه من كلام الله ﷻ، ولا يمكنه إلا أن يقول بخلق القرآن وهم المعتزلة.

إذًا كان الناس على فريقين:

أهل السنة: إثبات صفة الكلام والقول بأن القرآن من كلام الله ﷻ.

المعتزلة: الذين ينفون صفة الكلام وبالتالي يقولون: أن القرآن مخلوق.

جاء ابن كُلَّاب وأراد التوسط بين الفريقين، أراد التوسط بين أهل السنة وبين المعتزلة ولكنه لم يوفق ولا يمكن أن يوفق، لأنه أراد أن يتوسط بين الشر المحض وبين الحق ولا يمكن أن يؤدي موقفه إلا إلى الفشل؛ ولذلك كان موقفه مردودًا عليه من الفريقين ومستغرَبًا من الفريقين، لا هو مع أهل الباطل الذين هم المعتزلة ولا هو مع أهل السنة بل جاء بموقف غريب على جميع المعايير، وهذا الموقف الغريب اضطره إلى أن يتخذ مواقف أغرب منه في صفة الكلام: **فمثلاً**: ابن كُلَّاب أثبتَ صفة الكلام أزليَّة محضة، ونفى الجانب المُتعلق بمشيئته سبحانه وقُدرته، بنفيه الجانب المُتعلق بمشيئته سبحانه أراد أن يقترب من المعتزلة، وبإثباته صفة الكلام أزلية أراد أن يقترب إلى أهل السنة، فأثبت أن الكلام صفة أزلية ثم من المفروض أن يُسأل: ما هو هذا الكلام الذي تثبته صفة أزلية؟ قال: هو الكلام النفسي، لماذا؟ قال: لأن الكلام اللفظي يستلزم الترتيب والتعاقب، وهذا أمارة الحدوث، أن يكون حرف بعد حرف أو حرف قبل حرف وهذا كله أمارة الحدوث؛ ولذلك قال: أنه يثبت الكلام صفةً أزلية وينفي الجانب المُتعلق بمشيئته وقدرته.

إذًا نفى أن يكون الكلام اللفظي -الذي منه القرآن- من أن يكون كلام الله ﷻ، فمن الطبيعي أن يثار سؤال عن وضع هذا القرآن الذي أمامنا، القرآن المنزل؟ فقرر مرة أخرى أن فكرة الإنزال -إنزال القرآن من علو- هذه الفكرة أيضًا منفية، لماذا؟ لأن بعضهم ينفي العلو من هذا الباب، وأيضًا الكلام هو عبرة عن الكلام النفسي، والكلام النفسي في نفسه سبحانه ولا يمكن أن يطلع عليه، ولا يمكن أن تفكر في أن هذا الكلام يُنزَّل على أحد من الرسل، لاحظوا كيف تَسَلْسُلُ البدع وكلها لأمر واحد وهو أنهم اعتمدوا على دليل «**حدوث الأعراض**» لإثبات وجود الله سبحانه، وهذا الدليل مبناه على إثبات حدوث هذا العالم لأنه متصف بالأعراض، والأعراض حادثة وكل ما يتَّصف بالأعراض فهو حادث. هذا الدليل لاحقهم في كل مرحلة.

إذًا الكلام صفةٌ أزلية، والكلام الذي يتحدَّثون عنه أو نتحدَّث عنه عندهم هو الكلام النفسي، طيب الكلام النفسي كيف تعبر عنه؟ هل هو العلم؟ أو هل هو الإرادة؟

أنت تعلم أنك ستخاطب فلانًا بكذا وكذا وأردت أن تخاطبه، هل هو العلم والإرادة؟ لأن الكلام النفسي لابد أن نعرف ما هو.

إذا قلنا: الكلام عند أهل السنة طبعًا هو عبارة عن لفظ ومعنى ولا إشكال، لفظ ومعنى، معنى تريد أن تقوله وبعد أن قلته وصغته بعبارة ولفظ إذًا هذا هو الكلام عبارة ومعنى، وعندهم هو المعني فقط، وهذا المعنى ما هو، هل هو مجرد العلم أو تزيد عليه بالإرادة، أو ماذا؟ طبعًا لا يمكن أن يميزوا الكلام النفسي من العلم والإرادة؛ فلذلك تجدون في كتب المتكلمين محاولة مستميتة في جميع الكتب أو في أغلب الكتب، محاولة لبيان أن الكلام النفسي الذي يثبتونه غير العلم وغير الإرادة، ودليلهم في ذلك في مغايرتهم للعلم أن الواحد قد يتحدث بما لا يعلمه، أو قد يتحدث بما هو ليس صحيح في حقيقته وهذا كله في كلام المخلوق وعلم المخلوق، أما علم الله ﷻ وكلام الله ﷻ فتصور الكذب وكونه خلاف الحقيقة فيه كفر، وأهل السنة لا يأخذونهم باللوازم، وإلا لوازم هذه الأمور كلها كفر؛ إذًا كلام المخلوق وعلم المخلوق وإرادة المخلوق يسحبونه على كلام الله ﷻ وعلم الله ﷻ وإرادته.

إذًا الكلام الذي يعرفه جميع الناس صار غامضًا جدًا بحيث نحن الآن نحتاج إلى معرفته، ما هو؟

هل هو العلم؟ هل نضيف إليه الإرادة؟ ما هو الكلام النفسي؟

ذكر بعضهم لما وجدوا أنفسهم قد انحصروا في مضايق لا مخرج منها، قالوا: هذه الأمور لا نخوض في تفاصيلها، لماذا؟ هل تورعًا؟

لا، ليس تورعًا، يقول البيضاوي وهو من القرن السابع بعد ذكر الكلام النفسي: والإطناب في ذلك قليل الجدوى فإن كنه ذاته وصفاته محجوب عن نظر العقول، هل الكلام النفسي من صفاته حتى تتورع فيه بهذا الشكل؟

أيضًا الغزالي يعترض على لسان مخالفيه، فيقول: «قول القائل: كيف سمع موسى كلام الله تعالى؟ أسمع صوتًا وحرفًا؟ فإن قلتم ذلك فإذًا لم يسمع كلام الله» لأن كلام الله عندهم هو الكلام النفسي إذا سمع حرفًا وصوتًا فإذًا لم يسمع كلام الله، "فإن كلام الله ليس بحرف، وإن لم يسمع حرفًا وصوتًا فكيف يسمع ما ليس حرف وصوت؟"، هذا سؤال.

فأجاب بكلام طويل حاصله: (**أن هذا بحث في الكيفية وهو أمر غير جائز، فما علينا إلا أن نؤمن بذلك ولسنا مكلفين بالبحث عنه**)، نحن لسنا مكلفين بالبحث عن شيء مخترع، شيء اخترعته أنت ولم تعرف حقيقته ثم تلوذ بهذا الورع.

ولأجل هذه الأمور كلها كان موقف أحد متأخريهم وهو السنوسي صاحب «**البراهين**» السنوسي رد على أئمته بالجملة وشدد النكير عليهم، بل أنكر الكلام النفسي وله كلام طويل في ذلك، كل هذه المواقف وغيرها من المواقف الكثيرة، لماذا؟

لأنهم خرجوا عن الصحيح في إثبات وجود الله سبحانه، أثبتوا وجود الله سبحانه بدليل بدعي، وهذا الدليل لاحقهم حتى في تفاصيل هذه المسائل، وهل دليل وجود الله سبحانه منحصر في دليل واحد؟ أليس هذا من تحجير ما هو واسع جدًا!

دليل وجود الله يحصرونه في دليل واحد ثم هذا الدليل يلاحقهم في كل مسألة، وهذا كله يدل على أن موقف المتكلمين من البداية مؤسس على بدع وخرافات؛ ولذلك لا يستقيم في مرحلة من المراحل

وفي جميع الخطوات.

أيضًا من المسائل التابعة لهذه المسألة والتي أشار إليها شيخ الإسلام هنا، وحدة الكلام النفسي: هم يرون أن الكلام النفسي هو واحد، وهذا أيضًا من أغرب المسائل التي ذكروها، كلام الله ﷻ واحد، فإذا كان بالعربية فهو قرآن، وإذا كان بالسريانية فهو كذا، وإذا كان بالعبرية فهو كذا، وكلامه واحد، ومعناه: أن التوراة لو يترجم فهو نفسه القرآن، والقرآن هو نفسه التوراة، بل أيُّ آية في القرآن هي الآية الثانية، ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ معناها ﴿أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومعناها أيضًا الآية الأخرى، إذًا وحدة الكلام النفسي ليس هناك فرق في كلام الله ﷻ وليس هناك تجزئ وتبعيض في كلام الله ﷻ لماذا؟ لأن كل ذلك يستلزم التعاقب والترتيب وهو أمارة الحدوث.

شيخ الإسلام كما قلت لم يشر إلى هذه الأمور كلها ولكن في تقريره رد عليهم في جميع هذه المسائل: في البداية: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، القرآن كلام الله، وعند المعتزلة القرآن أيضًا كلام الله ولكنه مخلوق لأن الكلام عندهم هو حقيقة في اللفظ، وعند الكلابية حقيقة في المعنى، وعند أهل السنة وأهل اللغة عمومًا الكلام حقيقة في اللفظ والمعنى.

(**مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ**)، وعند المعتزلة مخلوق وعند الأشاعرة والماتريدية أيضًا مخلوق هذا القرآن، وقد صرحوا به في كثير من كتبهم بل هذه المسألة لم تبقَ غامضة كما أوصي البيجوري وذكر أنه في مقام التعليم فقط يذكر أن هذا القرآن العربي الذي هو مجزأ في سور وفي آيات، هذا القرآن عندهم هو مخلوق، ذكر البيجوري أنه لا يذكر هذا إلا في مقام التعليم، ولكن كثير منهم ذكروه، ذكره الرازي، ذكره الآمدي، ذكره قبله الغزالي، وأما المتأخرون فذكروا ذلك صراحة، وبيَّن الرازي أنه ليس هناك فرق بين موقفهم وبين موقف المعتزلة في كون هذا القرآن المنزل على النبي ﷺ باللغة العربية في كونه مخلوقًا، وإنما الخلاف في الكلام النفسي.

(**مِنْهُ بَدَأَ**)، فيه رد على المعتزلة الذين يرون أنه بدأ من الشجرة أو بدأ من المخلوق الذي خلقه الله فيه.

(وَإِلَيْهِ يَعُودُ)، فيه إشارة إلى أنه يُسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصدور ولا يبقى في الصدور منه كلمة ولا في المصاحف منه حرف.

(وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا القُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ)، كل هذه التأكيدات لبيان أن حديث شيخ الإسلام عن هذا القرآن الذي نتلوه.

(هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لاَ كَلامُ غَيْرِهِ، وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلاَمِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْهُ)، هم لما قالوا: أن الكلام حقيقة هو الكلام النفسي، أما الكلام اللفظي فيطلق عليه بأنه كلام الله مجازًا، تجدون في كتب المتكلمين أنه كلام الله، القرآن كلام الله هكذا إجمالاً لا يريدون أن يدخلوا في التفاصيل في المختصرات.

فالواحد يستغرب هو كلام الله غير مخلوق، وهم يريدون أنه كلام الله مجازًا؛ لأن كلام الله حقيقة عندهم هو الكلام النفسي، طيب هذا الكلام اللفظي ماذا ترون فيه؟

قالوا: هو حكاية عن كلام الله، هذا كلام ابن كلاب، ابن كلاب يقول: أن هذا القرآن اللفظي هو حكاية عن كلام الله ﷻ وليس كلام الله ﷻ، أو عبارة عنه وهذا مذهب الأشعري، الأشعري يري - الحسن الأشعري ومن بعده-هم يقولون: إذا قلنا حكاية عنه فهذا يستلزم أن يكون مثل المحكي وهو غيره؛ فلذلك عدلوا في العبارة وقالوا: ليس حكاية عن كلام الله بل هو عبارة عن كلام الله ﷻ، وكل هذا خطأ، والصحيح أنه كلام الله حقيقة لا كلام غيره.

ومن هذا نعرف أن موقف المعتزلة وموقف متأخري المتكلمين في القرآن المنزل واحد، الجميع على أن هذا القرآن مخلوق وليس بينهم خلاف في هذه المسألة، ثم تأكيدًا لهذه المسألة وردًا عليهم وإشارة إلى بعض أقوالهم قال:

(وهو كلام الله حروفه ومعانيه) هذه المسألة لا يحتاج أن تذكر؛ لأنه إذا قلت إن هذا القرآن كلام الله ﷻ فهذا القرآن حروفه ومعانيه، ولكن بما أن خلافهم مستطير في هذه المسألة نص عليها، وقال: **(هو كلام الله حروفه ومعانيه)** ليس كلام الله الحروف دون المعاني كما يقوله المعتزلة ولا المعاني دون الحروف كما يقوله الكلابية، الكلابية ومن تبعهم من الأشاعرة والماتريدية، هم يرون أن كلام الله هو المعاني دون الحروف، والمعتزلة يرون أن كلام الله الحروف دون المعاني.

(بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المَصَاحِفِ) هنا إشارة إلى مسألة أخرى، هم يشيرون إلى هذه المسألة بقولهم عدم حلول القرآن أو كلام الله في المصاحف، كلام الله ﷻ إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله، وهم يقولون: إذا قلت إن هذا كلام الله حقيقة فكيف حل بالمصحف؟ وكيف يمكنك أن تتلفظ به؟ هكذا يقولون. فيرد عليهم شيخ الإسلام ويقول: (بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً) لماذا؟ (فَإِنَّ الكَلامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ مُبْتَدِئًا، لا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا) أنت لما تنقل عن غيرك كلامه، هل يقولون: أن كلامه حل فيك؟ كلام غيرك نقلته أنت والكلام دائمًا ينسب إلى من قاله مبتدئًا، إذًا كلام الله ﷻ هو كلام الله ﷻ، سواء قرأ وسواء كتب أو تصرف فيه كيفما كان هو كلام الله ﷻ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَد دَخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ، كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

هنا يشير إلى مسألة ذكرها مرتين سابقًا وهذه هي المرة الثالثة وهي مسألة الرؤية، وأكد هنا أن من الإيمان بالله ﷻ أن نؤمن به وبكتبه ورسله، لماذا؟ لأن هذا ذكره جميع الرسل.

(بِأَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ)، هنا يشير إلى الرد على المخالفين وبالخصوص الأشاعرة والماتريدية الذين يثبتون الرؤية، ويثبتون رؤيةً لا إلى جهة، فيقول:

(يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ، كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ)، **وسبق أن ذكرت** أن موقف المتكلمين المعتزلة ينفون الرؤية، والأشاعرة والماتريدية يثبتون الرؤية، ولكن لنفيهم لعلو الله ﷻ اضطروا إلى أن يقولوا بإثبات رؤيةٍ من غير جهة، ثم اضطروا في الأخير أن يقولوا أن هذه الرؤية عبارة عن مزيد انكشاف، وبذلك رجعوا إلى مذهب المعتزلة؛ لأن المعتزلة لما نفوا الرؤية قيل لهم: إذًا

هذه الآيات ما المراد منها؟ قالوا: المراد بالآيات مزيد انكشاف، فرجع موقف المعتزلة إليهم بالنص وليس بالمضمون، بل بالنص مزيد انكشاف.

(يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهَ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ)، (يرونه) أي: المؤمنون، أما الكفار ففيهم خلاف، والخلاف بين أهل السنة، وحتى على القول بأنهم يرونه لا يقال بأنهم يرون الله ﷻ هكذا إطلاقًا؛ لأن الرؤية هي رؤية إحسان ونعمة، والكفار حتى في رؤيتهم لا يتنعمون بهذه الرؤية بل فيها تبكيت.

ولذلك لا يطلق القول بأن الكفار يرون الله ﷻ حتى على القول به، والخلاف بين أهل السنة، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله سبحانه كما في الحديث: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادى منادٍ يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينزلكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيء أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة»، **وهذا تفسير الزيادة**.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ: الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ القَبْرِ، وَبِعَذَابِ القَبْرِ وَنَعِيمِهِ، فَأَمَّا الفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَن رَّبُكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّكَ؟ فَيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ، فَيَقُولُ المؤْمِنُ: اللهُ رَبِّي ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي، وَأَمَّا المُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ لَصُعِقَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَى يَومِ القِيَامَةُ الكُبْرى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ، وَتَقُومُ القِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهُ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا المُسْلِمُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ العَرَقُ، وَتُنْصَبُ المَوَازِينُ، فَيُوزَنُ فِيهَا أَعْمَالُ العِبَادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣]، وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ،

وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَّراءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء: ١٣-١٤].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

هنا بدأ شيخ الإسلام في عرض بعض مباحث ركن الإيمان باليوم الآخر، وفتنة القبر هي الامتحان والاختبار للميت حين يسأله الملكان، وكل ما ذكره شيخ الإسلام هنا هو مستقى أو مأخوذ من النصوص، ومسائل الميعاد خلاف المتكلمين فيها قليل، هم يسمونها مسائل السمعيات؛ لأنهم يقسمون مسائل الاعتقاد إلى ثلاثة أقسام:

- قسم لا يجوز أخذه إلا من الأدلة العقلية.
- وقسم لا يجوز أخذه إلا من الأدلة السمعية.
- وقسم يجوز أخذه من هذا وذاك.
  - أما القسم الأول: فيسمونه الإلهيات.
  - وأما القسم الثاني: فيسمونه السمعيات.
  - وأما القسم الثالث: فبين هذا وذاك.

أما الإلهيات: فهي مسائل إثبات وجود الله سبحانه وإثبات ربوبيته، إثبات جميع المسائل إلى إثبات كلامه وأن الله ﷻ حي قدير، وأن الله ﷻ متصف بهذه الصفات إلى أن تثبت له صفة الكلام، إلى هنا يسمونه الإلهيات.

بعد أن تثبت أنه متكلم بكلام يتصف به، وأنه قد أرسل الرسل بكلامه من هنا تبدأ تستمع لرسله ولكن لا تأخذ منهم المسائل التي أخذتها من الأدلة العقلية، من بعد هذه المسألة يجوز لك أن تأخذ منهم، هذه الإلهيات وهي الأصول، وتلك السمعيات.

والسمعيات هي مسائل الميعاد عمومًا، ومسائل الغيبيات التابعة للميعاد وغيره، هذه مسائل

السمعيات.

أما المسائل التي يجوز أن تؤخذ من أدلة العقول وأدلة النقل: فيمثلون لها بالرؤية، ومسألة الرؤية يجوز أن تستدل فيها بالأدلة العقلية والأدلة النقلية، إذًا أين الخطأ في موقفهم وفي تقسيمهم؟

الخطأ في أصل التقسيم، وأصل التقسيم مبني على خلل في مصادر العقيدة، ومصادر العقيدة عندهم كثيرة، وبالنظر إلى المصادر جاء هذا التقسيم وكان نصيب الأدلة العقلية كما يقولون نصيب الأسد؛ لأن هذه الأدلة استأثرت بأصول العقائد وأصول العقائد تؤخذ من الأدلة العقلية، ولذلك إذا تعارض العقل والنقل في مسألة معينة فهذا يدل على أن هذه المسألة من اختصاصات النوع الأول من الأدلة، والنوع الأول من الأدلة-وهي الأدلة العقلية-هي الأدلة لأنها منها تؤخذ الأصول، فإذًا لا تقاومها الأدلة النقلية بل من شرط الأخذ بالأدلة النقلية أن لا يكون هناك معارض عقلي، ولا يكفي أن تقول: أنك بحثت فلم تجد معارضًا عقليًا لا يكفي، بل هناك احتمال أن يكون هناك دليل عقلي يعارض هذا الدليل النقلي.

ولذلك قالوا: أن الأدلة النقلية لا تفيد اليقين بتاتًا عندهم، وهذه المسألة طبعًا ركز عليها وقنن لها وأبرزها وأعاد فيها وأبدع الرازي، وبعد الرازي هذه المسألة أصبحت من مسلماتهم **أن الأدلة النقلية لا تفيد اليقين**، لماذا؟ لأن إفادة اليقين متوقفة على اجتياز عشر عقبات، ولا يمكن أن تتوفر هذه الشروط الأربعة في أي دليل لفظي، فلذلك لا يمكن للأدلة النقلية أن تفيد اليقين؛ إذًا الدليل الذي يفيد اليقين هو الدليل العقلي، والدليل العقلي من أين تأخذه؟ هل من الكتاب والسنة؟

الكتاب والسنة من الوحي وهو كله دليل لفظي، إذًا من أين تأخذه؟

من العقل، ومن هو أعقل الخلق عندهم؟

المتكلمون، وذكروا أن فلانًا أعقل الخلق، من هو؟

هو أرسطو المعلم الأول، نسأل الله ألا يأخذنا بذكر أسماء هؤلاء في هذا المسجد، على كل حال المعلم الأول، والمعلم الثاني، والحكماء، هؤلاء عندهم هم العقول.

المعلمي رَحِمَهُ اللَّهُ لما ذكر هذه المسألة ذكر مسألة افتراضية هي تنطبق على جميعهم ، وهي أن الرازي

وأمثاله لو كانوا أمام النبي ﷺ، وقال له النبي ﷺ كلامًا واضحًا في موضوع معين، يقول: لقال له الرازي: لا يمكنني أن أثق بكلامك يا رسول الله؛ لأن كلامك يحتمل احتمالات كثيرة، فقد تكون أردت غير الذي يتبادر إلى ذهني، فلو قال له النبي ﷺ: لم أرد إلا هذا الذي يتبادر إلى ذهنك، لقال له الرازي: كلامك الثاني يا رسول الله مثل كلامك الأول يحتمل عشرة احتمالات فلا يمكنني أن أثق في كلامك، فلو حلف له رسول الله ﷺ بآكد الأيمان لقال له -هذه عبارة المعلمي- : «لا تتعب يا رسول الله فكلامك الثالث مثل كلامك الأول يحتمل عشرة احتمالات أو أكثر».

إذًا نحن جئنا إلى السمعيات فذكرنا هذا التقسيم، إلهيات وسمعيات ومسائل متأرجحة بين الإلهيات والسمعيات، وهذا القسم الذي بدأ يذكره شيخ الإسلام هو من السمعيات؛ فلذلك خلاف المتكلمين فيه قليل، ولكن بعض خلافهم فيه خطير مثل قولهم لما يبدءون في السمعيات ويأتون الى مسائل الميعاد والقبر وغيره، يقولون: هذه المسائل يجب الإيمان بها-وهذا صحيح يجب الإيمان بها- لماذا؟ لأمرين:

الأمر الأول: لأنه لا مانع عقلي.

الأمر الثاني: لورد النقل به.

لأنه لا مانع عقلي، فلو كان هناك مانع عقلي هم يقولون: لا مانع عقلي، إذًا الدليل العقلي موجود هنا أيضًا؛ لأنه هو الدليل الأول الذي جعله يوجب الإيمان به، وخلافهم فيه قليل وخاصة الأشاعرة والماتريدية، أما المعتزلة فخلافهم في المعاد وسائر المعاد كثير كما ستأتي الإشارة، أما البقية فخلافهم فيه قليل ولكن نظرتهم إلى هذه المسائل كما قلت هي نظرة خاطئة، لأنها نابعة من هذا التقسيم الثلاثي للمباحث العقدية.

هنا صرح في الأحاديث التي أشار إليها شيخ الإسلام في كثير منها بعودة الروح إلى البدن، وبذلك تكون الفتنة أو يكون العذاب أو النعيم على الجسد والروح معًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَمَّا الكُفَّارُ، فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ بِسَيِّئَاتِهِ؛ فَإِنَّهُمْ لاَ حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدَّدُ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُجْزَوْنَ بِهَا.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

عودة الأرواح هذا الذي ذكره شيخ الإسلام هنا فتعاد، الأرواح إلى الأجساد هذه العودة تكون بعد نفخة القيامة، **القرآن ذكر ثلاث نفخات**:

نفخة الفزع ذكرها في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]، هذه نفخة الفزع.

ونفخة الصعق ونفخة القيام: ذكرهما في قوله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ هذه نفخة الصعق ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ هذه نفخة القيام ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

عودة الأرواح تكون بعد هذه النفخات الثلاث وهنا

(وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)، يذكر له ذنوبه، **ثم يقر العبد كما وصف ذلك في الكتاب والسنة**.

(وَأَمَّا الكُفَّارُ، فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ بِسَيِّئَاتِهِ؛ فَإِنَّهُمْ لاَ حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدَّدُ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُجْزَوْنَ بِهَا)، هذه هي محاسبتهم، هذه هي محاسبة الكفار ليس فيها ميزان للحسنات والسيئات والنظر إلى أيهما يرجح، وإنما محاسبتهم هي أن تُعد أعمالهم فتحصى ويوقفون عليها ويجزون بها.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي عَرْصَةِ القِيَامَةِ الحَوضُ الْمَوْرُودُ لِمُحَمَدٍ ﷺ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، وَآنِيَتُهُ عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا كله مأخوذ من النصوص، «حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه عدد نجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبدًا». متفق عليه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَلَمْحِ البَصَرِ، وَمِنْهُم مَنْ يَمُرُّ كَالبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ فَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الجِسرَ عَلَيْهِ كَلاَلِيبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا هو الورود الذي ذكر في قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، هذا هو المرور على الصراط هو هذا الورود.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ دَخَلَ الجَنَّةَ، فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ ﷺ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا مما اختُّص به النبي ﷺ، أنه أول من يَستفتح باب الجنة ويفتح له، في حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي رواه مسلم: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت، لا أفتح لأحد قبلك**»، وهذا من فضائله ﷺ ومما خصه الله به.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَهُ فِي القِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُوْلَى؛ فَيَشفَعُ لِأَهْلِ المَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ: آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسى ابْنُ مَرْيَمَ -عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ السَلاَمُ- الشَّفَاعَةَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا هو المقام المحمود الذي اختُص به نبينا محمد ﷺ، ويتدافع الأنبياء هذا الأمر كل إلى غيره، حتى يأتون إلى النبي ﷺ فيقول المسيح الذي يذهبون إليه آخر الأمر: «اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، والنبي ﷺ يشفع للخلائق ليبدأ الحساب، وهذا هو المقام المحمود.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الجَنَّة، وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ، وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، يَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لاَّ يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذه الشفاعة الأخيرة خالف فيها الخوارج والمعتزلة الذين يشملهم مصطلح الوعيدية، ويرون أن من استحق النار لا تنفعه شفاعة أحد، والمتكلمون الآخرون ليسوا معهم في ذلك، فهم خالفوا في ذلك بل بعضهم أنكروا الشفاعة عمومًا وهم قليل، أما هذه الشفاعة-الشفاعة الثالثة-فأنكرها الخوارج والمعتزلة، ورأوا أن من استحق النار فلا تنفعه شفاعة أحد.

ذُكرت ست أنواع من الشفاعات:

- **الشفاعة الأولى**: شفاعته للخلائق عمومًا في أن يقضي الله بينهم.
- **الشفاعة الثانية**: شفاعته لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة.
- **الشفاعة الثالثة**: شفاعته لأهل الكبائر من أمته.
- **الشفاعة الرابعة**: شفاعته في بعض من استحق النار ألا يدخلها.
- **الشفاعة الخامسة**: شفاعته في بعض من دخلها أن يخرج منه.
- **الشفاعة السادسة**: وهي لأهل الطاعة المستحقين للثواب، فيشفع لكي ترفع درجاتهم.

إذًا هذه ست أنواع من الشفاعات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

يعني ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ويقول فيه: «فيقول الله ﷻ شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقى إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج قومًا لم يعلموا خيرًا قط، قد عادوا حممًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَصْنَافُ مَا تَتَضَمَّنُهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ العِلْمِ المَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي العِلْمِ المَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ ـ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

دائمًا يشير شيخ الإسلام إلى المصادر؛ لأن هذه قضية مهمة جدًا.

(وَأَصْنَافُ مَا تَتَضَمَّنُهُ الدَّارُ الآخِرَةُ وتفاصيله مذكورة في الكتب المنزلة من السماء) نرجع إليها أولاً.

(وَالآثَارِ مِنَ العِلْمِ المَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي العِلْمِ المَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَتُؤْمِنُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

بدأ شيخ الإسلام في بيان ركن الإيمان بالقدر، وذكر بعض مسائله أيضًا باختصار شديد، والقدر من حيث اللغة: يراد به التقدير، وهو إما نُعَرِّفُهُ بأن نقول: علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، وهذا تعريف له بذكر أقسامه كما سيأتي في بيان الإيمان بالقدر، والإيمان بالقدر لا يكون إلا بالإيمان بهذه الأمور الأربعة.

أو يقال: قدر الله هو حكمه الكوني، وهذا تعريف مختصر أيضًا ذكره شيخ الإسلام.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ، فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ مَا الخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ القَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ، فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ.، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد: ٢٢].

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

ذكر شيخ الإسلام أن الإيمان بالقدر على درجتين وكل درجة تتضمن شيئين، في بعض كتبه ذكر أنها على أربع درجات وذكر هنا درجتين:

- **الدرجة الأولى**: (الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ مَا الخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ القَدِيمِ)، العلم، فلابد أن تؤمن بأن علم الله سبحانه شامل محيط.

- الدرجة الثانية: (ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ).

الكتابة، فتؤمن بأن الله سبحانه كتب كل شيء في اللوح المحفوظ.

(فَأَوَّلُ) أو («فَأَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ»؛ لأنه مكتوب.

(وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾، ذكر الدرجتين: العلم، والكتابة، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾.

(وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢])، إذًا هنا ذكر درجتين:

- **الدرجة الأولى**: العلم.
- **والدرجة الثانية**: كتابته لمقادير الأشياء.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ، وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، بِكَتْبِ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ .. وَنَحْوَ ذَلِكَ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا التقدير يكون في مواضع جملة قبل أن يخلق السماوات بخمسين ألف سنة لما كتب المقادير، وتفصيلاً في بعض المواضع فمثلاً: إذا خلق جسد الجنين وقبل نفخ الروح بعث إليه ملكًا فيؤمر بأربع كلمات، من ذلك أيضًا ما يكون في كل يوم كما في قوله سبحانه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، أي: هذا التقدير وهذه الكتابة تكون أولاً جملة، ثم يُظهر الله من هذه الكتابة شيئًا بعد شيء.

فمثلاً: لما خُلق آدم أظهر للملائكة ما قَدَّرَهُ ولم يكن معلومًا له، وكذلك لما يرسل الملك إلى كل واحد يكون في بطن أمه هنا أيضًا يكون شيء من التفصيل لم يكن أظهره قبله، وإلى هذا أشار شيخ الإسلام بقوله: (يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً)، جملة لما كتبه قبل خلق السماوات بخمسين ألف سنة، وتفصيلاً لما يكتبه بعد ذلك في بعض المواضع التي يذكرها مثلاً: فيما يكون في كل يوم ولما يكون في بطن أمه وغيرها.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَهَذَا القَدَرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ القَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ اليَوْمَ قَلِيلٌ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

وهؤلاء هم القدرية الغلاة ولا وجود لهم الآن في المنتسبين للإسلام، وقد خلفهم المعتزلة وهم القدرية، فلما يذكر هذا المصطلح فيراد به المعتزلة، ونراه في شروح الأحاديث فمثلاً في «فتح الباري»

وغيره، القدرية، القدرية، فالمراد به هم المعتزلة، أما القدرية الغلاة فلا وجود لهم الآن، وهؤلاء كانوا قد ظهروا في أواخر عصر الصحابة كما في أول حديث في صحيح مسلم الذي جاء إلى بن عمر وأخبره بمن ينكر علم الله وأن الأمر أنف، فلما بلغه قول هؤلاء تبرأ منهم وأنكر مقالتهم وأمر من نقل إليه أن ينقل إليه براءته منهم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلاَ سُكُونٍ؛ إلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، لاَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ المَوْجُودَاتِ وَالمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إلاَّ اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ اللهُ العِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ وَالمُحْسِنِينَ وَالمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الفَسَادَ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذه الدرجة تضمنت مرتبتين من مراتب الإيمان بالقدر: مرتبة المشيئة ومرتبة الخلق.

(وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ)، ثم ذكر:

(فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إلاَّ اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)، إذًا هذه الدرجة فيها مرتبتان بل هنا ذكر المرتبة الثالثة والرابعة.

المرتبة الثالثة: أن نؤمن بأن مشيئة الله سبحانه شاملة ونافذة.

والمرتبة الرابعة: نؤمن بأن الله سبحانه خالق كل شيء.

والخلاف في القَدَرِ هو في المرتبتين الآخرتين المشيئة والخلق هنا خلاف القدرية، أما خلاف القدرية الغلاة ففي المرتبتين الأوليين، ومع أن مشيئة الله ﷻ عامة وشاملة.

(وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ اللهُ العِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ وَالمُحْسِنِينَ وَالمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الفَسَادَ)، هنا يشير ويرد على الصوفية ويرد أيضًا على المعتزلة، الصوفية الذين يرون أن مشيئة الله الكونية تدل على محبته ورضاه فلذلك كل ما وقع فهو محبوب لله ﷻ عندهم؛ لأنه بتقدير الله ومشيئته وبخلقه، أما المعتزلة فيرون أن الله ﷻ ليس خالقًا أصلاً لأفعال العباد كما تأتي الإشارة إلى ذلك، فالله ﷻ يُنَزِهُ عندهم عن أن يكون قد خلق أفعال العباد.

وللرد عليهم يقول شيخ الإسلام: (وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ اللهُ العِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ وَالمُحْسِنِينَ وَالمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الفَسَادَ)، فيه رد على الفريقين المعتزلة والمتصوفة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَالعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِم، وَالعَبْدُ هُوَ: المُؤْمِنُ، وَالكَافِرُ، وَالبَرُّ، وَالفَاجِرُ، وَالمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ، وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:٢٨-٢٩]، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ السَّلَفُ: مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى يَسْلُبُوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هنا أشار شيخ الإسلام إلى مسألة هي من مسائل الإيمان بالقدر وهي مسألة أفعال العباد، أفعال العباد هل هي مخلوقة لله ﷻ أو هي مخلوقة للعباد؟

نحن ننظر إلى هذه المسألة على ضوء ما تقرر لدينا من المراتب الأربعة: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، ونحن نتحدث الآن عن أفعال العباد هل هي مخلوقة لله ﷻ أو هي مخلوقة للعباد أنفسهم؟ ونحن هناك قررنا أن من مراتب الإيمان بالقدر: أن نؤمن بأن الله سبحانه خالق كل شيء، هل استثنينا أفعال العباد؟ لم نستثن؛ إذًا ننظر إلى هذه المسألة على ضوء ما قررنا هناك ولا إشكال، فالله ﷻ خالق كل شيء ومن ذلك أفعال العباد، ولكن هل هذا يدل على أن العباد لا تنسب إليهم أفعالهم؟

لا، العباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم، الجمع بين الخلق والفعل أو القول في الخلق والفعل، هذا الذي اضطرب فيه الناس.

بعضهم قالوا كالجبرية: أفعال العباد هي تنسب إليهم مجازًا، وإنما هي أفعال الله ﷻ على ما فيها من تفصيل لا يذكر، هي أفعال الله ﷻ والعباد تنسب إليهم أفعالهم مجازًا؛ لأنه لا دخل لهم في شيء من أفعالهم.

وعلى النقيض منهم المعتزلة: يرون أن أفعال العباد هم خالقون لها.

وأهل السنة: يرون أن هناك فرق بين الفعل والخلق، فأفعال العباد تنسب إلى العباد فعلاً، فهي أفعالهم حقيقة يحاسبون عليها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهي أفعالهم خلق الله ﷻ، فالله خالق كل شيء.

جاء فريق ليحاول التوسط بين الموقفين، وهو أبو الحسن الأشعري أراد التوسط بين أهل السنة الذين يرون أن أفعال العباد تنسب إلى العباد فعلاً وتنسب إلى الله خلقًا، وبين المعتزلة الذين يرون أن أفعال العباد تنسب إلى العباد فعلاً وخلقًا.

أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يتوسط بين الفريقين، فقال: أفعال العباد هي تنسب إلى الله ﷻ فعلاً وخلقًا، إذًا موقفه يكون مع من؟

أهل السنة أفعال العباد تنسب إلى العباد فعلاً وتنسب إلى الله ﷻ خلقًا هذا موقف أهل السنة، أما موقف المعتزلة فأفعال العباد تنسب إلى العباد فعلاً وخلقًا، والجبرية يقولون: أفعال العباد تنسب إلى الله فعلاً وخلقًا، يعني:

- الجبرية: أفعال العباد تنسب إلى الله ﷻ فعلا وخلقًا.
- المعتزلة: أفعال العباد تنسب إلى العباد فعلاً وخلقًا.
- أهل السنة: أفعال العباد تنسب إلى الله خلقًا وإلى العباد فعلاً.

يقول أبو الحسن الأشعري: أن أفعال العباد تنسب إلى الله ﷻ فعلاً وخلقًا فيكون مع الجبرية، ولكن عنده استدراك لئلا يُنْسَبَ إلى الجبرية، فهو يقول: هناك شيء ينسب إلى الخلق وهو الكسب؛ إذًا أفعال العباد تنسب إلى الله ﷻ فعلاً وخلقًا وتنسب إلى العباد كسبًا، نحن عندنا الآن أربعة مواقف:

- تنسب إلى العباد فعلاً وخلقًا، وهذا موقف المعتزلة.
- تنسب إلى الله ﷻ فعلاً وخلقًا، وهذا موقف الجبرية.
- تنسب إلى العباد فعلاً وإلى الله ﷻ خلقًا، وهذا موقف أهل السنة.

- تنسب إلى الله ﷻ فعلاً وخلقًا وينسب شيء آخر إلى العباد وهو الكسب، وهذا موقف أبو الأشعري.

المواقف الثلاثة واضحة ما فيها غموض، الموقف الأخير الذي حاول فيه صاحبه التوسط بين الحق والباطل جاء غامضًا، وهكذا محاولات التوفيق بين الحق والباطل، أول ما يكون فيها هو الغموض، وهذا الغموض على ما أظن لا يخصنا نحن وإنما هذا الغموض أيضًا عندهم، فنحن عندنا أمران: فعل، وخلق.

فالفعل الذي هو كسب الإنسان (قام فلان) حصل منه شيء، حصل منه كسب وهو القيام، هذا الفعل ينسب إليه، ينسب إليه خلقًا وفعلاً عند المعتزلة، وهذا الفعل ينسب إلى الله ﷻ فعلاً وخلقًا عند الجبرية؛ لأن القيام والقعود ليس لهم دخل فيه، الأشعري يقول: أنه ينسب إلى الله ﷻ فعلاً وخلقًا وينسب إلى الإنسان كسبًا، هذا الكسب إن لم يكن فعلاً فهو شيء غامض، هذا الكسب إذا كان عُبر عن الفعل بالكسب فهو واضح: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]. إذًا أفعالنا هي كسب لنا، إذًا هناك كسب لأهل السنة أيضًا وهو الكسب بمعنى الفعل.

أما الكسب الذي ليس هو فعل فهذا غامض ولا يزال غامضًا، فلذلك عُدَّ من محارات علم الكلام الثلاثة "التي هي كسب الأشعري، وطفرة النظام، وحال البهشمي أبو هاشم المعتزلي لما أراد أن يحل قضية الصفات؛ لأنك إذا أثبت أسماء الله سبحانه لابد أن تثبت صفاته؛ لأن القدير من قامت به القدرة والمعتزلة يثبتون الأسماء وينفون الصفات، فكيف تثبت قديرًا بلا قدرة؟

أراد أن يَحُلَ هذا الإشكال؛ لأن كلمة الصفات عندهم حساسية منها، إذا قال: القدير من قام به القدرة يكون قد وافق أهل السنة؛ فلذلك جاء باصطلاح أخر وهو «الحال»، فهذا الحال إذا لم يكن صفة فهو غريب، و"طفرة النظام" النظام المعتزلي يرى أن بإمكان الشيء أن ينتقل من اليمين إلى الشمال دون أن يمر على الوسط، فهل هذا ممكن؟

هذه الأمور الثلاثة هي من محارات علم الكلام، وفعلاً حاولت أن أفهم كسب الأشعري فلم

أفهمه، وعلمت يقينًا أنهم أيضًا لا يفهمونه؛ لأن الشيء الذي لم يستطيعوا أن يعبروا عنه هذه القرون المتطاولة لا يمكن أن يأتي أحد بعدهم ويعبر عنه؛ إذًا هذا الشيء غامض عندهم وعندنا أيضًا.

إذًا عندنا أربعة مواقف:

- موقف أهل السنة والجماعة: أن أفعال العباد تنسب إلى العباد فعلاً وإلى الله ﷻ خلقًا.
- موقف الجبرية: أن أفعال العباد تنسب إلى الله ﷻ خلقًا وفعلاً.
- وموقف المعتزلة: أن أفعال العباد تنسب إلى العباد فعلاً وخلقًا.
- وموقف الأشعري: أنها تنسب إلى الله ﷻ فعلاً وخلقًا وينسب إلى العبد شيء آخر وهو الكسب.

فلذلك متأخروا أصحابه صرحوا بأن موقف أبي الحسن الأشعري لا يختلف عن موقف الجبرية، وممن صرح بذلك الرازي، صرح بأن موقفه هو موقف الجبرية، ولذلك يُعَدُّ في أفعال العباد من الجبرية، ولكن موقف أهل السنة: أن العباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر، وعند الجبرية من يكون المؤمن والكافر نعوذ بالله؟

أفعال العباد عندهم هي تنسب إلى الله ﷻ خلقًا وفعلاً.

(**وَالعَبْدُ هُوَ: المُؤْمِنُ، وَالكَافِرُ، وَالبَرُّ، وَالفَاجِرُ، وَالمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ، وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ**)، هذه القدرة عند المعتزلة قدرة مطلقة، وعند أهل السنة قدرة مقيدة بمشيئة الله سبحانه.

(**وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ**) عندهم إرادة مطلقة، وعند أهل السنة إرادة مقيدة بإرادة الله ﷻ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله، هذا تلخيص لموقف أهل السنة كما قال سبحانه: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:]، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]؛ إذًا مشيئتك من مشيئة الله سبحانه، هو الذي خولك وجعلك تشاء وأعطاك القدرة والاستطاعة.

(**وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ**)-يقصد إلى الدرجتين المرتبتين الأخريين المشيئة والخلق- (**يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ**) يكذب بها عامة القدرية وهم المعتزلة، المعتزلة هم اشتهروا في باب القدر بالقدرية

والمصطلح الذي اشتهروا به عمومًا هو المعتزلة، كما أن الجبرية هم الجهمية، الجهمية اشتهروا في باب الأسماء والصفات بالجهمية، وفي باب القدر الجبرية، إذا قيل في باب القدر الجبرية الغلاة فهم الجهمية، وفي الإيمان هم المرجئة، الجهمية أنفسهم في باب الإيمان يسمون المرجئة الغلاة، وفي باب القدر يسمون جبرية، وفي باب الأسماء والصفات جهمية، والقدرية الذين هم المعتزلة في باب القدر يسمون قدرية، وفي باب الأسماء والصفات يسمون جهمية؛ لأنهم مثل الجهمية، وفي باب الإيمان هم وعيدية وأقرب إلى الخوارج.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

الَّذِينَ سَمَّاهُمُ السَّلَفُ: مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى يَسْلُبُوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

وَمِنْ أُصُولِ الفِرْقَةِ النَاجِيَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ القَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ القَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ، وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيْدُ بِالطَاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

الآن بدأ شيخ الإسلام في بيان الإيمان نفسه، وهذا المبحث أيضًا كان الأليق أن يذكره شيخ الإسلام في بداية الرسالة، ولكنه ذكره هنا؛ لأنه بدأ في بداية الرسالة بعرض مسائل الأسماء والصفات.

(**وَمِنْ أُصُولِ الفِرْقَةِ النَاجِيَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ القَلْبِ**)، قول القلب هو التصديق والإقرار.

(**وَاللِّسَانِ**)، قول اللسان هو الإقرار بالشهادتين.

(**وَعَمَلُ القَلْبِ**) الذي هو الانقياد.

(**وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ**)، وكثير من أهل السنة يعبرون عن الإيمان بأنه قول وعمل على هذا التفصيل: قول القلب هو التصديق الإقرار، وقول اللسان هو الإقرار بالشهادتين، وعمل القلب هو الانقياد، وعمل اللسان والجوارح معروف، وبعضهم يقول إن الإيمان: هو قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وهذا أشمل.

أما موقف المتكلمين:

- فموقف المرجئة الغلاة: أن الإيمان هو التصديق فقط.
- وموقف مرجئة الفقهاء: أن الإيمان هو تصديق وقول.
- وموقف المعتزلة والخوارج هو مثل موقف أهل السنة: هو قول وعمل، إلا أنهم يقولون إنه إذا سلب بعضه عدم جميعه، فبذلك يكفرون مرتكبي الكبائر، فالخوارج يكفرونهم والمعتزلة يجعلونهم في منزلة بين المنزلتين.

(**وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيْدُ بِالطَاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ**)، وهذه المسألة مبنية على تعريف الإيمان، فالإيمان عند أهل السنة قلنا هو ثلاثة أمور: «اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان»؛ إذًا لا إشكال في أن نقول: «بأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»، والإيمان عند المتكلمين عمومًا وخاصة مرجئة المتكلمين هو «التصديق»، والتصديق عندهم لا يزيد بالطاعة ولا ينقص بالمعصية.

لاحظوا أن موقفهم في زيادة الإيمان ونقصانه وكذلك موقفهم في الاستثناء في الإيمان مبني على موقفهم الأول، فخطأهم الأول جرهم إلى الخطأ هنا في قضية زيادة الإيمان ونقصانه أيضًا، الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحجرات:١٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢] وقال: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[الفتح:٤]، وقال: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة:١٢٤].

فالآيات نص على زيادة الإيمان، وهم يقولون إن المراد بالزيادة هنا زيادة المُؤْمَنِ به، بمعنى: أنهم كانوا يؤمنون بالشرائع لما كانت تُفرض عليهم كل حكم يفرض عليهم كانوا يؤمنون به، اليوم فرضت الصلاة آمنوا بها، فرضت الزكاة آمنوا بها، فرض الحج آمنوا به .. وهكذا، ما أبعد هذا التأويل! يعني أن تؤول هذه الآيات الكثيرة وهذه الأحاديث الكثيرة لأجل أنك بنيت موقفك على أساس باطل، لأنهم قالوا: الإيمان في اللغة هو التصديق، والحقائق هي الحقائق اللغوية، أما الحقائق الشرعية فهي تابعة

للحقائق اللغوية.

ونحن نتحدث هنا عن الإيمان الشرعي لسنا في بحث لغوي، نحن هنا نتحدث عن الإيمان الذي ذكر في الكتاب والسنة إذًا بحثنا ليس لغويًا وإنما بحثنا شرعي، حتى موقفهم في اللغة خطأ: لأن الإيمان ليس مرادفًا للتصديق وإنما الإيمان معناه هو التصديق والإقرار.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعَاصِي وَالكَبَائِرِ كَمَا يَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وَقَالَ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تبغي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات:٩-١٠]، وَلاَ يَسْلُبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ اسْمَ الإِيمَانِ بِالكُلِّيَّةِ، وَلاَ يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُهُ المُعْتَزِلَةُ، بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ؛ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[النساء: ٩٢]، وَقَدْ لاَ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ المُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[الأنفال:٢]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلاَ يُعْطَى الاسْمَ المُطْلَقَ، وَلاَ يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هنا وضح شيخ الإسلام موقف أهل السنة من الإيمان الشرعي.

(وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعَاصِي وَالكَبَائِرِ كَمَا يَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ:﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾)، من هو هذا الأخ؟ هو الذي ارتكب القتل، والقتل من الكبائر.

(﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾) الآية تدل على أن الإخوة الإيمانية ثابتة مع الكبائر.

أيضًا: (﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾) يرتكبون معصية كبيرة وهي قتال المؤمن،

(﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تبغي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾) إنما المؤمنون إخوة حتى ولو تقاتلوا، حتى ولو ارتكبوا هذه المعصية الكبيرة؛ إذًا الإخوة الإيمانية باقية مع المعاصي، إلى هنا الرد على الخوارج الذين يسلبونه اسم الإيمان بكامله، ويجعلونه كافرًا.

(وَلاَ يَسْلُبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ اسْمِ الإِيمَانِ بِالكُلِّيَّةِ، وَلاَ يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّار؛ كَمَا تَقُولُهُ المُعْتَزِلَةُ)، المعتزلة في النتيجة مع الخوارج يخلدون في النار الفاسق الملي، ومرتكب الكبائر هو عندهم مخلد في النار، أما في الدنيا في منزلة بين المنزلتين، أما أهل السنة فلا يسلبون منه الإيمان بالكلية.

(بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَان؛ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾)، هذه الرقبة المؤمنة هل نبحث عن الرقبة كاملة الإيمان؟ لا، مجرد الإيمان يكفي في أن تأخذها وتحررها، الإيمان المطلق هو غير مطلق الإيمان سأشرحه هنا في الأخير.

(وَقَدْ لاَ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ المُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: (﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾)، هنا المراد المؤمنون كاملوا الإيمان (﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾)، المراد بالمؤمنين هنا كاملي الإيمان، وهنا لا يدخل الفاسق أو مرتكبي الكبائر لأنه ليس بكامل الإيمان.

وفي الحديث أيضًا: («لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ») أي: مؤمن كامل الإيمان. (وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ)، بقولنا: (هُوَ مُؤْمِنٌ)، بذلك نكون قد فارقنا الخوارج والمعتزلة، وبقولنا: (ناقص الإيمان)، فارقنا المرجئة الذين يرون أنه مؤمن كامل الإيمان.

(أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلاَ يُعْطَى الاسْمَ المُطْلَقَ)، الاسم المطلق هو الاسم الكامل، لا يعطى الاسم المطلق، إذا ذكر المؤمن كامل الإيمان هذا لا يدخل فيه.

(وَلاَ يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ)، ومطلق الاسم هو أدنى درجة المسمى، هو مطلق الاسم، أما الاسم المطلق فهو الكامل، فلا يعطي الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم بكبيرته؛ إذًا هو مؤمن

ناقص الإيمان وهذا موقف أهل السنة، أما موقف المرجئة فهو مؤمن كامل الإيمان، وموقف الخوارج والمعتزلة فهو إما في منزلة بين المنزلتين أو هو كافر مخلد في النار.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: سَلاَمَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ـ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠]، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

بدأ شيخ الإسلام يعرض أصلاً آخر من أصول أهل السنة والجماعة، الأصل الذي تميَّزوا به كحالهم في بقية أبواب الاعتقاد، تميزوا به عن مختلف طوائف هذا البدع.

هذا الأصل يتعلق بصحابة رسول الله ﷺ، أولئك الذين اختارهم الله لصحبة نبيه، أولئك لم يسلموا من بُغْضِ بعض من ينتسب إلى الإسلام، وصار لزامًا على أهل السنة أن يُبينوا موقفهم تجاه أولئك الأخيار، وقد لخَّص شيخ الإسلام هنا هذا المبحث تلخيصًا جميلاً، وقال: (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ).هذا أصل من أصولهم وليس مسألة فرعية ولا مسألة خلافية، ولا خلاف بينهم فيه، بل هو من أصول أهل السنة والجماعة، (سَلاَمَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾)

ومن أعظم خُبث القلوب: أن يكون في قلب العبد غِلٌ لخيار المؤمنين وخاصةً لأولئك الأخيار الذين هم سادات أولياء الله بعد النبيين؛ ولذلك لم يجعل الله في الفيء نصيبًا لمن بعدهم إلا الذين يقولون: (﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ

رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾)، فلم يجعلْ لهم نصيبًا في الفيء؛ لأنهم لا ينبغي أن ينسبوا أنفسهم إليهم.

وأهل السنة يترحَّمون على الجميع ويستغفرون لهم، والذين يسبونهم قد نصَّ كثيرٌ من أهل السنة أنه فعلًا لا حق لهم من الفيء، ومن لم يكن قلبه سليمًا لهم ولسانه مُستغفرًا لهم لم يكن في الحقيقة من أولئك، وهذا من أصول أهل السنة التي اتفقوا عليها.

وأيضًا من أصولهم: سلامة قلوبهم، ومن أصولهم: (وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ»)، والمُخاطب في هذا الحديث هو سيف الله خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإذا كان أمثال خالد يُخاطَبون بهذا الحديث فكيف بغيرهم من الأغمار الذين يَلِجُونَ في سب أولئك الأخيار.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ أَوَ السَّنَّةُ أَوَ الإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

من أصول أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالصحابة إجمالاً: سلامةُ قلوبهم وألسنتهم للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وطاعة النبي ﷺ في قوله: «**لا تسبوا أصحابي**»، ويشترك فيه الجميع.

ثم بدأ يفصل، ويذكر بعض المسائل المتعلقة بمسألة الموقف من الصحابة.

قال: (وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ أَوَ السَّنَّةُ أَوَ الإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ)، لاحظوا أنه دائم الذِّكر للأدلة، يذكرها إما نصًا أو بالإشارة إليها، (وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ أَوَ السَّنَّةُ أَوَ الإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ)، يؤمنون أيضًا بأنهم على مراتب ثم ذكر شيئًا من ذلك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ -وَهُوَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ- وَقَاتَلَ، عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ -وَكَانُوا ثَلاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ-

: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، وَبِأَنَّهُ «لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ، بَلْ قَدْ ﷺ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

هذه إشارة إلى بعض المراتب التي اختص بها بعضهم، (فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ -وَهُوَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ-وَقَاتَلَ، عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ)، أشار إلى أن المراد بالفتح هنا هو (**صلح الحديبية**) لأنه هو الذي عُني بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح:١]، إذًا هناك تفصيل بين من أنفق من قبل الفتح وبين من أنفق بعد الفتح.

(وَيُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ) من حيث الجملة (عَلَى الأَنْصَارِ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ-وَكَانُوا ثَلاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَر-)، من الفضيلة بأن الله سبحانه قال لهم: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**».

ويؤمنون أيضًا: (وَبِأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)؛ إذًا أصحاب الشجرة لهم هذه الميزة، إذًا الصحابة لهم مراتب وبعضهم اختص ببعض الفضائل دون بعض، وهؤلاء الذين كانوا أصحاب الشجرة (وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ) من الصحابة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيَشْهَدُونَ بِالجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، كَالعَشَرَةِ، وَكَثَابِتِ بنِ قِيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

خُصوا العشرة المبشرين بالجنة؛ لأنهم ذُكِروا في حديث واحد، وإلا الذين بشروا بالجنة هم كثر ومنهم ثابت بن قيس، أما هؤلاء العشرة فذُكِروا في حديثٍ واحد رواه أهل السنن، حديث عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «**عشرة في الجنة: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي وعثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص**»، وبما أن راوي هذا الحديث هو سعيد بن زيد وهو منهم، فإنه ذكر التِّسعة وسكت فقال القوم: «ننشدك الله يا أبا الأعور من العاشر؟ قال: أنشدتموني بالله، أبو الأعور في الجنة» وهو سعيد.

أما شهادة النبي ﷺ لثابت فهي في القصة المعروفة عند نزول قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾ [الحجرات:٢]، فظن ثابت بن قيس أنه هو المقصود بها؛ لأنه كان جهوري الصوت فاحتبس -حبس نفسه- وحزن لذلك حزنًا عظيمًا فقال النبي ﷺ: «**بل هو من أهل الجنة**».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ، مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

أيضًا: (وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ)، خصَّه بالذِّكر لإقامة الحجة على المخالفين، وهذا هو الترتيب: (أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ)، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين، (كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَكَمَا أَجْمَعَتْ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي البَيْعَةِ، مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّم قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا، لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا في التفضيل، والخلاف بين أهل السنة، مع أنه -كما ذكر شيخ الإسلام- استقرَّ أمرُ أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ المَسْأَلَةُ -مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ- لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ، لَكِنَّ المَسْأَلَةَ الَّتِي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الخِلاَفَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ، وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلاَفَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ، فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

هنا مسألتان: مسألة التفضيل، ومسألة الخلافة.

- **مسألة التفضيل**: الخلاف فيها بين أهل السنة، واستقر أمر أهل السنة أنهم يُثلِّثون بعثمان ويُربِّعون بعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
- أما **مسألة الخلافة**: فكما ذكر شيخ الإسلام أنه يُضلَّل فيها المخالف.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»، وَقَدْ قَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّه-وَقَدِ شَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ- فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي»، وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، وَيُقِرُّونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ، خُصُوصًا خَدِيجَةَ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلاَدِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ المَنْزِلَةُ العَالِيَةُ، وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ، الَّتِي قَالَ فِيهَا ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

ومن وسطية أهل السنة في هذا الباب

(وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ)، يحبونهم ويخصونهم بمزيد من الحب لإسلامهم، ولقرابتهم من رسول الله ﷺ .

(وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي») هذا حديث رواه مسلم؛ فإذًا هم يحفظون فيهم وصية النبي ﷺ ويحبونهم كما قلت لأمرين: لإسلامهم، ولقرابتهم من رسول الله ﷺ، ولكن هذا خاص بمن كان من أهل السنة.

(وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»)، وأهل البيت هم بنو هاشم كلهم، أولاد العباس، وعلي، والحارث بن عبد المطلب، وسائر بني أبي طالب كلهم من أهل البيت.

أما أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين فقد اختلفوا هل هن من آل البيت أم لا؟ **والصحيح**: أنهن أيضًا من آل البيت.

أما ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم

جاء علي فأدخله ثم قال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا»، فهذا الحديث لا يدل على أنهم هم أهل البيت فقط، وإنما فيه إشارة إلى من كانوا من أخص أهل البيت الذين كانوا عنده.

فالحديث لا يفيد لا مفهومًا ولا منطوقًا أن أزواج النبي ﷺ لسن من أهل بيته ﷺ.

(وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ) ﷺ، وسمى منهن اثنتين: (خَدِيجَةَ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلاَدِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ المَنْزِلَةُ العَالِيَةُ)، وسمى منهن الصديقة بنت الصديق لما كان النبي ﷺ يخصها بمزيد من الحب قال فيها: («فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ البَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

الروافض هذه طريقتهم وهم للأسف كثر، أما النواصب هم في الأمة قليل جدًا مثل المشبهة، المشبهة مع كثرة ورود هذا المصطلح في كتب الكلام فهم قلة، وخاصة المشبهة الذين فعلاً يصرحون بتشبيه الله بخلقه هم قلة في الأمة، وكذلك النواصب هم قلة في الأمة، أما الروافض فهم كثر الذين يبغضون عامة الصحابة بحجة أنهم في ذلك يحبون آل البيت.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ المَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِئِهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمَنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَعَامَةُ الصَّحِيحِ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا الكلام الذي ذكره شيخ الإسلام في موقف أهل السنة فيما شجر بين الصحابة من أجمل ما تجدونه من الكلام، وهو مركز جدًا وملخص، لخص فيه أغلب ما يمكن أن يقال في هذا المذهب، فلذلك نستمع إليه بتركيز.

قال: (وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ المَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِئِهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ)، هذا نقطع به، نقطع بأن منها ما هو كذب؛ لأن في الرواة كثير من الروافض فمثلًا: ممن اعتمد عليه الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ أبو الأخنف أظنه من الروافض، وكثير من المرويات وخاصة فيما يتعلق بالصحابة عن طريقه وهو كذاب؛ ولذلك نقطع بأن شيئًا كثيرًا من هذه المرويات التي نسبت إلى الصحابة كذب قطعًا.

(وَمَنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ)، فصار ينسب إليهم بعض المثالب.

(وَعَامَةُ الصَّحِيحِ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ)، ومع ذلك يستحقون أجرًا واحدًا.

عمومًا هذا اعتذار جميل جدًا عن الصحابة، أو ما رُوي عن الصحابة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُمْ مَّعَ ذَلِكَ لاَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الجُمْلَةِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

إذا كان أهل السنة الصحيح من مذهبهم: أن الأنبياء أيضًا غير معصومين عن الصغائر، ما كان منه ما لا يُخل بالرسالة فكيف بالصحابة!

فقول المخالفين: أننا نعتقد العصمة في عدد، وأنتم تعتقدون أن العصمة في جميع الصحابة هذا كذب، نحن لا نعتقد العصمة للصحابة، يعني يجوز أن تقع منهم الذنوب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُم مِنَ السَّوَابِقِ وَالفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ -إِنْ صَدَرَ-، حَتَّى إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُم مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لاَ يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، لأَنَّ لَهُم مِنَ الحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

يعني أين لمن بعدهم من رصيد الحسنات الذي يوجب المغفرة مثل ما كان للصحابة؟

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ القُرُونِ، وَأَنَّ المُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ، ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ، فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ المُحَقَّقَةِ، فَكَيْفَ فِي الأُمُورِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إِنْ أَصَابُوا فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أخطئوا فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالخَطَأُ مغْفُورٌ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

الذنوب المحققة إن كانت صدرت عنهم فهذا شأنها، يعني: يغفر لهم من السيئات ما لا يُغفر لمن بعدهم، وقد يكونون قد تابوا منها، وقد يكونون جاءوا بحسناتٍ تمحوها أو غير ذلك مما ذكره شيخ الإسلام، هذا في الذنوب المحققة، (فَكَيْفَ فِي الأُمُورِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ)، لم يتعمَّدوا فيها أنهم يرتكبون ظلمًا أو ذنبًا، (إِنْ أَصَابُوا فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أخطئوا فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالخَطَأُ مغْفُورٌ).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ثُمَّ القَدْرُ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ القَوْمِ وَمَحَاسِنِهِم، مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالعِلْمِ النَّافِعِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

ثم يتساءل شيخ الإسلام في الأخير بعد هذا التفصيل الذي ذكره: ما هو القدر الذي ينكر من فعل بعضهم؟

هو شيءٌ (قَلِيلٌ نَزْرٌ)، وهذا تأكيد لأنه قليل، (مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ القَوْمِ وَمَحَاسِنِهِم)، ما هو القدر الذي يذكر من مساوئهم؟ لا يكاد يُذكر هذا الذي يثيره هؤلاء، يعني: ما هو في جنب محاسنهم وفي جنب فضائلهم، (مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالعِلْمِ النَّافِعِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ)، كل ما نقرأه ونتدارسه وكل ما وصلنا من علم النبي ﷺ فعن طريقهم يصلهم هذا الأجر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَن نَظَرَ فِي سِيرَةِ القَوْمِ بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ الفَضَائِلِ، عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خِيْرُ الخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ، لاَ كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُم هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَـذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا أيضًا كلام جميل من شيخ الإسلام: (وَمَن نَظَرَ فِي سِيرَةِ القَوْمِ بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ الفَضَائِلِ، عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خِيْرُ الخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ، لاَ كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ)، وهذا هو الجزم الذي يجب أن يكون، (وَأَنَّهُم هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِم مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ العُلُومِ وَالمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ القُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، وكالمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

موضوع كرامات الأولياء متصل بموضوع المعجزات، والمعجزات التي تحصل للأنبياء تصديقًا من الله سبحانه لنبوتهم وتأييدًا لهم فيما ينسبونه إلى الله ﷻ، والخوارق التي تحصل للأنبياء تسمى معجزات، والخوارق التي تحصل لأتباعهم تسمى كرامات، والكرامات التي تحصل للأولياء هي ببركة اتباعهم للأنبياء؛ إذًا الموضوع تابع للإيمان بالرسل.

ذكَّر به هنا شيخ الإسلام بعد ما تحدث عن الصحابة رضي الله عنهم إشارة منه إلى أن أولئك كانوا أولياء ولهم كرامات كثيرة، وهذا الموضوع الناس فيه طرَفان ووسط، فبعضهم استغلَّ موضوع كرامات

الأولياء لإثبات ما يحلو له من الخرافات والأساطير التي تنسج حول بعضهم؛ اعتمادًا منه على أنه كله موضوع كرامات الأولياء.

فإذا أنكرت على أحد منهم وقلت: أن هذه خرافات وأساطير؛ رد عليك وأرجعك إلى الأصل، وقال: أنك تنكر كرامات الأولياء، وأهل السنة يقولون ويؤمنون بكرامات الأولياء، ولكن الكرامات التي تحصل لهم فعلاً، والكرامات التي تحصل للأولياء فعلاً، أما المجاذيب وأولئك الذين هم أبعد الناس عن الإيمان فهم ليسوا أولياء حتى تكون لهم كرامات.

الطرف الذي يستغل هذا الموضوع لترويج الخرافات، والطرف الآخر هو طرف المعتزلة الذين لهم موقف في موضوع المعجزات أصلاً، هم يرون أن خوارق العادات سواءً للأنبياء أو للأولياء لا تحصل؛ لأن الدَّليل الوحيد الذي يدل على صدق النبوة عندهم هو المعجزة، والمُعجزة خوارق، فإذا كانت لغير الأنبياء فهذا يلتبس فيه الأمر، ويكون أيضًا غير الأنبياء مُلتحقًا بالأنبياء؛ ولذلك هم ينكرون كرامات الأولياء، والمعجزات يجعلونها أصل التصديق للنبوات، وعند أهل السنة دلائل النبوة كثيرة جدًا.

منها المعجزات التي يطلق عليها في مصطلح الكتاب والسنة الآيات، هذه من دلائل النبوة، أما عند أولئك فإثبات صدق النبي أو النبوة مُنحصرٌ في دليلٍ واحد وهو المعجزة، وإثباتُ المُعجزة لا يكون إلا عقليًا، وحصرهم لموضوع إثبات صِدق النبوَّة في المعجزات، هذا خلافُ ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الأدلة التي تدل على صِدق النبوة هي كثيرة جدًا.

وبما أن كرامات الأولياء هي أيضًا في الجملة تدل على صدق نبوة الأنبياء وأن أولئك الأولياء لم يناولوا ما نالوا من الكرامات إلا لاتباعهم للأنبياء، نجد كثيرًا من المُحدِّثين يذكرون الأحاديث المتعلقة بالمعجزات، والأحاديث المُتعلقة بدلائل النبوة، والأحاديث المُتعلقة بالكرامات يسردونها ويدخلونها في باب واحد، منهم الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه» ذكر الأحاديث التي تدل على دلائل النبوة والمعجزات، وذكر أيضًا الأحاديث التي تدل على الكرامات، كرامات أبي بكر وغيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم ذكرهم في باب واحد.

إذًا هناك طرفان ووسط: طرف المعتزلة الذين ينكرون الكرامات، وطرف الخرافيين والمتصوفة وغيرهم الذين يستغلِّون هذا الموضوع لترويج الخرافات، وأهل السنة والجماعة يرون أن الكرامات للأولياء، وهم المؤمنون المتبعون للنبي ﷺ، وكل من خرج عن إتباع النبي ﷺ فهو ليس من الأولياء؛ وبالتالي ما يصدر عنهم ليس من الكرامات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ إِتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَإِتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَإِتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيُؤْثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ، وَبِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الجَمَاعَةِ، لأَنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ الاِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ القَوْمِ المُجْتَمِعِينَ، وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي العِلْمِ وَالدِينِ، فَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ، وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ، إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلافُ، وَانْتَشَرَتِ الأُمَّةُ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ الله-:

هنا في أواخر هذه الرسالة المباركة أشار شيخ لإسلام إلى موضوع إذ كان ينبغي أن يذكره في بداية الرسالة، وهو موضوع (مصادر التلقي وخاصة في العقيدة) بل في الدِّين كلِّه.

وذكر أن هذه الأصول التي ذكرها هنا في هذه الرسالة هي تستند أو تُستقى من ثلاثة أصول:

- **الأصل الأول**: الذي هو أصل الأصول: هو كتاب الله ﷻ.
- **الأصل الثاني**: السنة المطهرة.
- **والأصل الثالث**: هو الإجماع.

وذكر أن الإجماع الذين ينضبط: هو ما كان عليه السلف الصالح، وقصر الإجماع عليهم ليس

لأن الإجماع ينحصر عليهم وإنما لما ذكر هنا، إذا بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة، وادعى كثير من الناس الإجماع فيما انعقد على خلافه إجماع السلف كما ذكر بعضهم أن الأئمة من المذاهب الأربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة اتفقوا وأجمعوا على مشروعية زيارة قبر النبي ﷺ ، وهذا الإجماع يُخالف ويُناقض إجماع السلف، وكذلك ما يحكون من الإجماع على أن الله ﷻ ينزَّه كما يَسمون من الجهوية، ثم يقولون: أن الله ﷻ لا يوصف بأنه في علو أو في سفل يحكون فيه الإجماع مع أنه يناقض ما يجب أن يعتقده المؤمن.

لذلك بعض تلك الإجماعات التي يدعيها المتأخرون تكون صريحة في مناقضة إجماعات السلف، ولذلك الإجماع الذين ينضبط هو إجماع السلف الصالح.

وذكر شيخ الإسلام هنا: (**ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ إِتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَإِتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَإِتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»**)، هذه مقدمة لبيان هذه الأصول الثلاثة، هذه المقدمة هي التي تسوقك وتحصرك على هذه المصادر الثلاثة؛ لأنك تلتزم بالآثار وبالسنة، ولذلك تكون مصادرك مُنضبطة في هذه المصادر الثلاثة: الكتاب والسنة والإجماع.

(**وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيُؤْثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ**)، ثم في الأخير الإجماع إذًا مصادرهم في العقيدة هي هذه الثلاثة: الكتاب، والسنة، والإجماع الذي هو إجماع السلف.

وذكرتُ أن سبب تأخير شيخ الإسلام لهذا الموضوع مع أن حقه التقديم، ومع أنه يُذكَّر به عادةً في بدايات كتب أهل السنة لأنه يُريد أن يقول -بعد أن طبقه في هذا الكتاب- : ذكَّرنا به في الأخير، أليس هذا هو الذي طبقه في جميع الرسالة؟

كل مسألة يستدل عليها بآية أو آيات كثيرة أو حديث ثابت عن المعصوم أو إجماع السلف، في كل مسألة يذكرنا بأنه في الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا الذي طبقه إلى هنا ذكَّرنا به في الأخير ليكون أرسخ، وليكون أيضًا أقرب إلى الاستعمال.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ هُم مَّعَ هَذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هنا بدأ شيخ الإسلام يسرد الطريقة العملية لأهل السنة، أو ما يُسمى بالسلوك، وذكر بعض أصولهم في هذا الباب.

الأصل الأول الذي ذكره أنهم (**يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ**)، هذا الأصل يتميزون به دون غيرهم من الطوائف، ولعلكم تتذكرون أن هذا الأصل من أصول المعتزلة الخمسة (الأمر بالمعروف)، المُعتزلة دينهم مبني على الأصول الخمسة منها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أشار شيخ الإسلام هنا إلى تميز أهل السنة في هذا الباب بقوله: (**عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ**)، لأن الأمر بالمعروف يحتاج إلى تحديد ما هو المعروف؟ فإذا أمرك المعتزلي بأن تشرك بالله سبحانه، وتقول: بأنك أنت خالق أفعالك، وإذا أمرَكَ المعتزلي بأن تعتقد بأن القرآن مخلوق، هو يأمر بمعروفٍ يراه معروفًا، وليس هذا المعروف هو الذي أوجبته الشريعة؛ ولذلك أراد شيخ الإسلام أن يُقيِّد ويبين تميُّز أهل السنة في هذا الباب وهو أن المعروف الذي يأمرون به هو الذي توجبه الشريعة.

إذًا المعروف الذي يأمر به المعتزلي هو المعروف الذي أرتأه هو، وليس من الواجب أن يكون مطابقًا للشريعة، بل هو في كثير من الأمور مناقضًا للمعروف الذي يجب أن يؤمر به.

إذًا أهل السنة والجماعة يتميَّزون بتحديد المعروف، وتحديد المنكر، يتبعون السنة ويتبعون الدليل

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر شيخ الإسلام أن من سبيلهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنهم يلتزمون ثلاثة أمور: **العلم، والرفق، والصبر**.

العلم قبل الأمر والنهي، فلابد أن تعلم أن هذا معروف وأن هذا منكر حتى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، العلم قبل الأمر والنهي.

والرفق أثناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو معه.

والصبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عرفت أن هذا معروف شرعًا، وهذا منكر شرعًا فأمرت به ونهيت عن المنكر قد يلحقك في ذلك من الأضرار فعليك بالصبر؛ إذًا سبيلهم في ذلك يتلخص في هذه الأمور الثلاثة: العلم والرفق والصبر، وهذا الأصل الأول: أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجيه الشريعة.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الحَجِّ وَالجِهَادِ وَالجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا أيضًا أصل مهمٌ من أصول أهل السنة والجماعة، (**وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الحَجِّ وَالجِهَادِ وَالجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا**)، وهذا الأصل أيضًا من الأصول التي يضمن لأهل السنة الاجتماع وعدم الافتراق، وهم في ذلك كله متبعون للنصوص، يرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيُحَافِظُونَ عَلَى الجَمَاعَاتِ، وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ المَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»، وَقَوْلِهِ ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

الأصل الثالث الذي ذكره شيخ الإسلام هو (وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ)، والنصيحة جعلها النبي ﷺ الدين كله، «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة» ثلاثًا حصر الدين كله في النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولأئمة المسلمين ولعامتهم»؛ إذًا يدينون بالنصيحة للأمة، ومن نصيحتهم للأمة أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ويعتقدون في باب النصيحة معنى قوله ﷺ: («المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ المَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»)، وقوله: («مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ») هذا أصل ثالث.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى البَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هذا أصلٌ رابع، وهذا أيضًا يجمع الدين كُلُّه، الدين كله يتلخص في: الامتثال بالمأمور، والانتهاء عن المحذور، والصبر على المقدور، (وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى البَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

هم عمومًا يدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، يعني هذا فيه عموم (وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»)، ما ذكره هنا إلى أخر هذه الفقرة هو متعلقٌ بهذه المَسألة مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالإِحْسَانِ إِلَى اليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالمَمْلُوكِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الفَخْرِ، وَالخُيَلاءِ، وَالبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلاَقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَفِهَا، وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا أَوْ غَيْرِهِ، فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقُهُمْ هِيَ دِينُ الإِسْلاَمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

قال الشارح –وفقه الله–:

هذه أمثلة لمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

(وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا أَوْ غَيْرِهِ، فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)، هذا لكونهم يتميزون في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التزامهم بما كان معروفًا شرعًا، ومنكرًا شرعًا؛ لأنهم يأمرون بالمعروف إذا كان معروفًا شرعًا، وينهون عن المنكر إذا كان منكرًا شرعًا.

بعد هذا التفصيل في النهاية يُذكِّر شيخ الإسلام ويقول: أن طريقتهم هي دين الإسلام كاملاً، هذا الذي ذكره هو إشارة إلى بعض ما في هذا الدين، ولا يعني أن هذا الذي ذكره يعتقدونه فقط وما لم يذكره لا يعتقدونه؛ فلذلك يشير في الأخير إلى مفهومهم ونظرتهم إلى العقيدة والدين عمومًا.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَطَرِيقُهُمْ هِيَ دِينُ الإِسْلاَمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتُهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّار إلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ السُنَّةُ والجَمَاعَةُ، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلامِ الْمَحْضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَومَ وَأَصْحَابِي».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

طريقتهم هي دين الإسلام؛ فإذًا اسم المسلم يُميزهم عن غيرهم، ولكن لماذا اضطرُّوا أن يُلقِّبوا أنفسهم بأهل السنة والجماعة؟ بعدما حصل ما أشار إليه النبي ﷺ من الاختلاف والافتراق، (لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتُهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّار إلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ السُنَّةُ والجَمَاعَةُ، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلامِ الْمَحْضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَومَ وَأَصْحَابِي»)، بعدما ما حصل من الاختلاف العريض لقبوا أنفسهم بأهل السنة والجماعة.

وفي الأخير يشير شيخ الإسلام إلى أن أصحاب هذه العقيدة التي عرضها هم كل من تتخيله من الأنبياء والصالحين، وكل من تتخيل فيه الصلاح، فلا تستوحش من عقيدة هم معك فيها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَفِيهُمْ أَعْلامُ الهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولو المَنَاقِبِ المَأْثُورَةِ، وَالفَضَائِلِ المَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ، ومِنْهُمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذِينَ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

شيخ الإسلام هنا يشير إشارة إلى أن المخالفين لما يذكرون عقيدتهم يقولون: منا الإمام فلان، والإمام فلان، ومنا فلان، ومنا فلان، يقول شيخ الإسلام: هؤلاء أعلام الهدى هم على هذه العقيدة، وليس على تلك العقائد التي تكون مستقاةٌ من الفلاسفة وغيرهم.

(ومِنْهُمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ)، أما غيرهم ممن لمعت أسمائهم واشتهروا وممن لم تُجمع الأمة على هدايتهم فنحن لا نفتخر بهم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

هُمُ الطَّائِفَةُ المَنْصُورَةُ الَّتِي قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ، لاَ يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

إذًا ولو كنت وحيدًا أو حتى ولو كانت هذه العصابة قليلة فلتُبْشِر بقول نبيها ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ، لاَ يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ، وَأَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً، إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ.

وَالحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم.

قَالَ الشَّارِح -وَفَّقَهُ اللهُ-:

ونحن بدورنا نسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا منهم، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ونسأل الله أن يميتنا على السنة ويُميتنا على هذه العقيدة الصافية الناصعة، ويبعدنا عن البدع والخرافات والفتن ما ظهر منها وما بطن،

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.